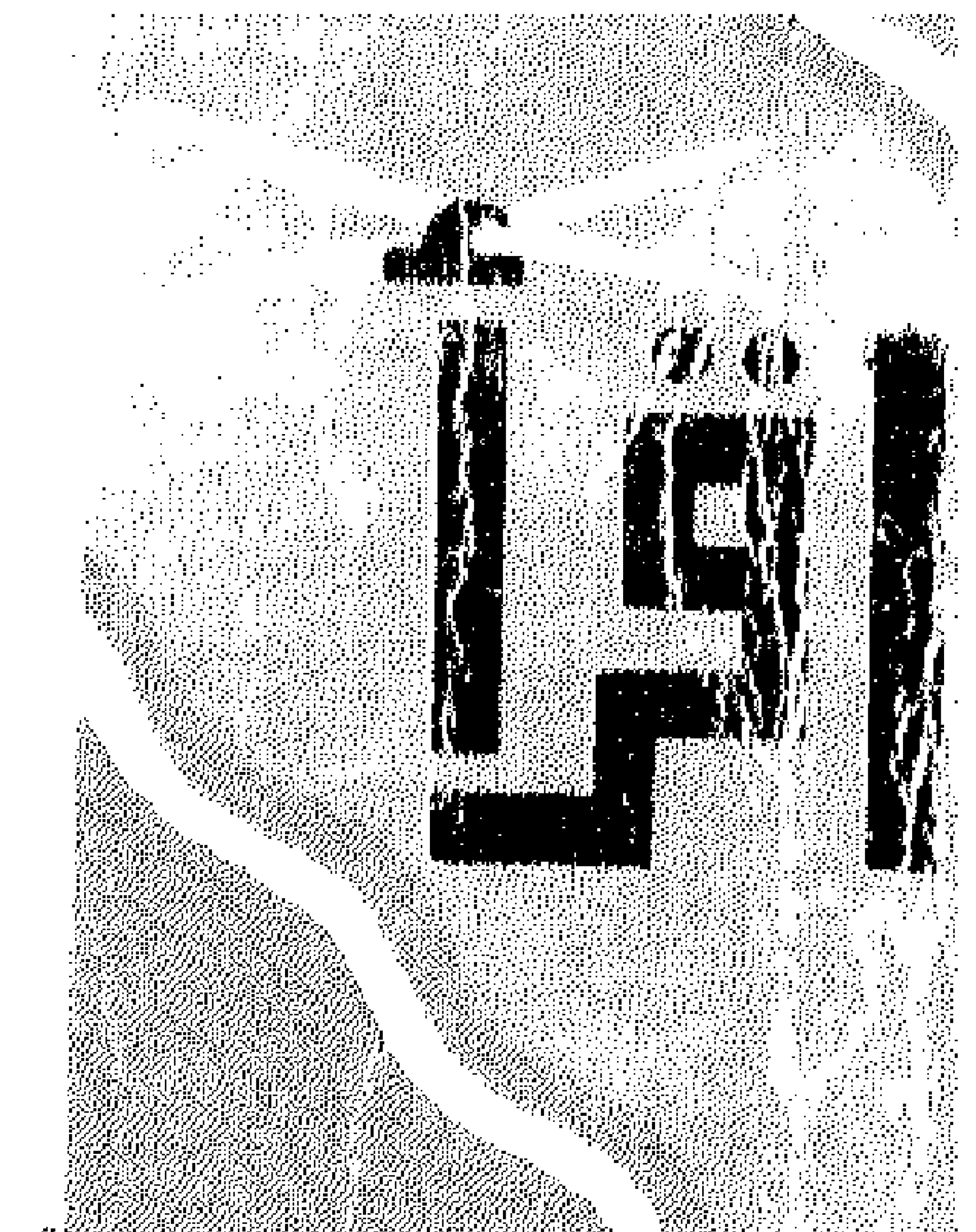


طه حسين - توفيق الحكيم

القصر المسحور

عدد ممتاز



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا





طه حسين . توفيق الحكيم



اقرأ ٣٥٦

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٥٦ - أغسطس سنة ١٩٧٢

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

الإهداء

إلى

التي كانت تشيع ذهابنا إلى
القصر المسحور وتتلقى عودتنا
منه بنظرات حائرة وبسمات
ساخرة، ولكن فيها مع ذلك
الرحمة والإشفاق والتشجيع؛
لأنها تعرف كيف تحيي
زهرات الأدب وتبعث نشاط
الأدباء ... إلى : مدام طه
حسين ... نرفع حديث
القصر المسحور

توفيق الحكيم وطه حسين
« سالنش ١٩٣٦ »

سمیر شہرزاد

« من مأمنه يؤتى الحذر » كذلك قالت حكمة القدماء . .
وأبت الظروف إلا أن أكون أنا الدليل الناصع على صدق ما قالت حكمة القدماء . فقد ضقت بالحياة العنيفة المفعمة بألوان النشاط المختلفة فى مصر حتى لم أستطع لها احتمالا ، وحتى ضعف كل جسمى وانهدت لها قواى ، وعجزت لها أعصابى عن المقاومة فأصبحت سريع الغضب سريع الرضى، سريع الانفعال بوجه عام، حتى أنكرت نفسى وأنكرنى الناس ، ولم أر بداً من أن أفر بما بقى لى من قوة العقل والجسم إلى مكان بعيد أخلو فيه إلى نفسى ، وأستريح فيه من هذه الجهود المتصلة وأسترد فيه بعض ما أنفقت من القوة ، حتى إذا استجمعت منه حظاً لابأس به عدت إلى مصر فأنفقته مرة أخرى فى غير تقصير ولا اقتصاد .

من أجل هذا كله عبرت البحر ومررت بباريس مراً سريعاً كأنه مر الطيف ، فلم يرنى الحى اللاتينى إلا مرة أو مرتين . ثم أويت إلى هذه القرية النائية المنزوية فى عطف من أعطاف الجبل ، إلى هذه القرية التى لايعرفها المصريون ، والتى يمرون بها فى طريقهم إلى المصايف المعروفة دون أن يخطر لهم الوقوف عندها أو الإقامة فيها . واخترت مع أهلى فندقاً متواضعاً متوسط الحال لاتشغل أهله هذه الحركات العنيفة التى تشغل المصطافين ولايخطر لمصرى أن يأوى إليه إن ألم بهذه القرية خطأ ، لأن المصريين فى العادة إذا عبروا البحر

لا يأوون إلا إلى الفنادق الفخمة التى يكثر فيها الفرح والمرح ويظن بأهلها الغنى والثروة وتعود الترف والنعيم.

ولما بلغت الفندق أكرهت صاحبى على أن يختار لنفسه ، أو اخترت له أنا غرفة فى الطابق الأعلى لايصعد إليه أحد إلا الذين لايكلفون بالراحة ولايشفقون من الجهد ، لأن غرفة صاحبى إذا كنا فى أوربا هى فى الوقت نفسه الملجأ الذى ألجأ إليه إذا أردت القراءة أو الإملاء.

وكذلك اعتقدت ، وكان لى الحق أن أعتقد ، أنى قد أمنت الضجيج والعجيج وضمنت الراحة والهدوء ، وأعددت لنفسى ما أنا محتاج إليه لأسترد النشاط من جهة ولأعوض الوقت الضائع من جهة أخرى ، فأقرأ كثيراً وأكتب قليلا.

وإنى لمع صاحبى ذات يوم قد خلونا إلى ديوان من دواوين الشعر ننظر فيه وانقطعت الصلة بيننا وبين العالم الخارجى حتى ما نسمع هفيف الريح ولا حفيف الأغصان، ولا غناء الطير ولا صياح الأطفال الذين يلعبون فى حديقة الفندق ، وإذا الباب يطرق طرقاً خفيفاً لا نحفل به ولا نلتفت إليه، نظن أنه لايعنينا وإنما يعنى الغرفة المجاورة، ولكن الطرق يتصل ويلح ، ثم يشتدشيئاً فشيئاً ، ثم يضطرنى إلى أن ألتفت ، ويضطر صاحبى إلى أن يضع الكتاب ثم يضطره إلى أن ينهض فيفتح الباب ليرى ما دونه ، وكان قد أغلقه فأحكم إغلاقه إيثاراً للعافية وإغراقاً فى التحفظ والاحتياط ، ولم يكد صاحبى يفتح الباب

حتى رأى شخصاً غريباً كان يقدر أن يرى كل إنسان وأن يرى كل شيء دون أن يراه . شخصاً شرقيًّا فى زى أهل العراق لم يعرفه قط ، وهو من أجل ذلك ينكره أشد الإنكار وينكر وجوده فى هذه القرية المنعزلة ، وينكر اهتداءه إلى هذا الفندق وصعوده إلى هذا الطابق وطرقه باب هذه الغرفة .

وكان صاحبى مقتنعاً بأن هذا الشخص قد أخطأ طريقه وجار عن سبيله وقصد إلى غير مقصد ، ولكن الشخص يسأله عنى ويدفع إليه كتاباً يطلب منه أن يتلوه علىّ . فيعود صاحبي إلىّ حيران دهشاً، قد كان يدركه الاختلاط لولا أنه تعود مثل هذه المفاجآت منذ امتحنته الأحداث بمصاحبتى . فهو يفض الكتاب ويقرأ علىّ هذه الأسطر :

« سيدى

« علمت اليوم أنك معتزل فى عطف من أعطاف هذا الجبل الذى أصطاف قريباً من قمته ، فنازعتنى نفسى إلى أن أراك ، ثم دفعتنى نفسى إلى رؤيتك دفعاً لم أجد عنه مندوحة ، وكنت أحب أن أسعى إليك حتى لا أكلفك مشقة الحركة وجهد الانتقال ، ولكنى آثرت أن تسعى إلى حتى لا أكلفك مشقة هى أثقل على نفسك فيما أعتقد من المشقة الأولى ، لأنها معنوية ، فأنت تكره من غير شك أن تسعى سيدة للقائك ،

وأدبك يفرض عليك أن تسعى أنت للقائها . وإذن فأنا أكتب
إليك راجية أن تتفضل فتتهيأ للقائى ، ولكنى أحب أن تعلم
أنى لاأزار إلاحين منتصف الليل وأن زيارتى لن تكلفك جهداً
ولاعناء ، فإذا تقدم الليل وكاد ينتصف فانتظر متهيئاً
للخروج . ولك أن تصطحب هذا الفتى الذى يلزمك لزوم
الظل إن لم تر من اصطحابه بداً ، ولك أن تتركه إن كنت
قد ضقت به كما تضيق بكثير من الناس وبكثير من الأشياء
من حين إلى حين ، فأنا أعرف من أمرك ياسيدى أكثر مما
تظن .. وتقبل تحية المشوقة إلى لقائك »

شهر زاد

أظنك أيها القارئ العزيز غير محتاج إلى أن أصف لك ما أدركنى
من الدهش وما أدرك صاحبى من الذهول ، ولكن دهشى وذهول
صاحبى تجاوزا حدهما حين التفت صاحبى فلم ير الفتى العراقى الذى حمل
إلينا الكتاب ، وحين التمسه فى الفندق لم ير له أثراً ، وحين سأل عنه
أصحاب الفندق ظهر له أنهم لم يروه ولم يحسوه ولم يعرفوا له خبراً ، وأن
أحداً لم يسألهم عن مكاننا وأنهم لم يدلوا أحداً على هذا المكان .

كان الدهش والذهول ينتهيان بصاحبى وبى إلى الجنون أو إلى
ما هو أكثر من الجنون ، وقد خيل إلينا لحظة أن خيالا من هذه الخيالات
التى تملأ الضمائر وتنكرها نفوسنا الشاعرة قد عبث بنا ، وأن الذى

أثار هذا الخيال هو حضور الأستاذ توفيق الحكيم إلى قريتنا منذ يومين .

فقد حضر صديقنا توفيق الحكيم إلى هذه القرية في قصة لعلك تظهر عليها وقتاً ما ، ومنذ انتهى إلينا كثر الحديث بالطبع عن « أهل الكهف » ، و « شهر زاد » ، و « عودة الروح » وما يتصل بذلك كله من الأدب والنقد والإنتاج والتقصير ، وكل هذا العناء الذى فررنا منه إلى فرنسا مقسمين أن نتجنبه فى أثناء الصيف. فخيل إلى صاحبي وإلى أن كثرة الحديث فى الأدب وفى أبطال توفيق الحكيم قد سحرت عقولنا وصورت لنا كل هذا القصص الذى عرضته عليك ، ولكن الكتاب كان بين يدى صاحبي يمسه بيديه ويراه بعينيه ويقرأ على ما فيه من الكلام .

وجعلنا كلما تقدم النهار ودنونا من المساء اشتد اضطرابنا وامتلأت قلوبنا وجلا ورعباً حتى أنكرنا خلطاءنا وأشفق على أهلى وخيل إليهم أنى أتهيأ لعلة من العلل أو للون من ألوان الحمى .

ولست أخفى عليك أنى اجتهدت كما اجتهد صاحبي فى أن نخفى هذه القصة على من حولنا مخافة أن يظن بنا الجنون وأن ندخل الروع على قوم آمنين .

ومن عادتنا إذا رفعنا أيدينا عن طعام العشاء أن نمشى قليلا فى طريق من هذه الطرق الجبلية نستمتع بهذا الهواء الطلق الأرج ثم نعود إلى مخبئنا فنخلو إلى كتبنا حتى يدعونا النوم إلى أن نستريح .

وقد جهدنا برغم ما كان يملأ قلبينا من هذا الخوف المتزايد من لحظة إلى لحظة فى أن نجرى الأمور كما تعودنا أن نجريها دون أن نغير شيئاً مما ألفنا .

فلما آوينا آخر الأمر إلى غرفتنا الشاهقة فى السماء لم نقرأ صحيفة ولم نفتح كتاباً ولم ننظر فى ديوان ، وإنما لبثنا فيما كنا فيه من دهش وحيرة وذهول ننتظر أحد الخطرين. فإما أن يتحقق ما أنبأنا به الكتاب وإذن فالله وحده يعلم ما وراء ذلك ، وإما أن يتكشف الأمر عن لاشيء فينتصف الليل وكأننا لم نتسلم كتاباً ولم نتلق دعوة ولم نتعرض لخطر ولم نحس خوفاً ، وإذن فهو الشر الذى ليس بعده شر ، هو الجنون الذى لايختص به فرد من الأفراد وإنما يشترك فيه اثنان .

وهذه دقات إحدى عشرة تنبئنا بأن انتصاف الليل ليس بعيداً ، وهذا العرق البارد يسيل على جبهتينا ، وها نحن هذان نتكلف الجلد ونأبى على أسناننا أن تصر وعلى فرائصنا أن ترتعد ولكن ماذا ! هذا الباب يطرق طرقاً خفيفاً ، ثم يفتح دون أن نأذن بالدخول ، ثم . . . ونفيق وإذا نحن فى مكان غير المكان الذى أنفقنا فيه أول الليل ، ولكن الغريب أننا لا ننكر أنفسنا ولانحس خوفاً ولا وجلاً ولانجد إلا ما يجده الزائر لإنسان ذى خطر من هذا التهيب اليسير الذى يشغله فى أثناء الانتظار أن يؤذن له .

ولايطول هذا الانتظار وإنما هو قصير جداً لايتيح لنا أن نتبين الغرفة التى ننتظر فيها والأثاث الذى يحيط بنا .

فهذا باب يفتح فى جانب من جوانب الغرفة ، وهذه فتاة

رشيقة أنيقة تدخل منه مشيرة قائلة فى خفة وفى لهجة عربية فصيحة عذبة : « هل لهذين السيدين أن يتبعانى ؟ » فنتبعها آمنين مطمئنين كما تعودنا أن نفعل فى مصر حين نزور من نزور من العظماء وأشراف الناس . وهى تسعى بين يدينا رشيقة خفيفة الروح كأنما تمشى فى الهواء ونحن نتبعها متنقلين معها من غرفة إلى غرفة ومن بهو إلى بهو ، تصل إلينا من بعيد أنغام عذبة هادئة متصلة كأنها غناء الأرواح ، إن كنا قد سمعنا غناء الأرواح . ثم تنتهى بنا هذه الفتاة الحسناء إلى أستار ثقال فتقف لحظة مشيرة إلينا أن سيدتها هنا وراء هذه الأستار . ثم تتقدم فتنحى ستراً عن يمين وستراً عن شمال ، وتمضى خطوات ثم تنحنى محيية ثم تنحرف لنا عن الطريق ثم تنصرف وقد تركتنا مع شهر زاد .

وشهر زاد تلقانا باسمة مبتهجة مشرقة الوجه طلقة الأسارير ، ولكنها لاتتحرك من مكانها وإنما تشير إلى صاحبى إشارة خفيفة أن ادنوا ، فدنونا وإذا هى مستلقية على هذا الأثاث الذى يسمونه الكرسى الطويل ، قد كثرت من حولها الوسائد ووضعت قريباً منها مائدة صغيرة قد اثقلتها الكتب والصحف والمجلات وهى تمنحنا يداً صغيرة رشيقة ، فإذا لثمناها أذنت لنا بالجلوس وأبت إلا أن يكون مكانى قريباً منها ، فنجلس ويتصل الصمت لحظات ، ثم نسمع صوتاً لا أستطيع أن أشبهه إلا بخرير الماء حين يتساقط هادئاً نحيلا فى حوض من المرمر . وإذا هذا الصوت الحلو النحيل البعيد يقول لى : لقد روعناك ياسيدى على غير انتظار منك لهذا الخروج ، فمعذرة إليك ولا تلم إلا نفسك فقد كثر

الحديث عنك وكثر ما قرأت لك، حتى إذا علمت بقربك منى لم أجد من لقائك بدًّا . قلت فى صوت مضطرب بعض الشىء ، عفواً ياسيدتى أين أنا ؟ ومن تكونين ؟ أريد أن أعرف أنائم أنا أم يقظان، فقد اختلفت على أمور منذ اليوم أذهلتنى عن نفسى ، ولا أكاد أبلغ هذه الجملة حتى يتردد فى هذه الغرفة الواسعة ضحك نحيف حلو ، ثم تمس يدها الرشيقة الناعمة يدى الغليظة الخشنة فى رفق، ويقول الصوت البعيد : لابأس عليك ، لست نائماً ولاحالماً وإنما أنت يقظان حاضر الذهن ، وأنت عند شهر زاد. شهر زاد؟ ألا تعرفها ؟ لقد طال ما استمعت لها أيام الصبا ، وقد طال ما اشتغلت بها أيام الشباب ، وما أقرب ما كتبت عنها منذ عامين اثنين . قلت لاتعبثى ياسيدتى فلن تستطيعى أن تقنعينى ، ولكنها قطعت علىّ حديثى قائلة بل أستطيع أن أقنعك بما أشاء ، لقد ملأت قلبك صبيًّا وملأت عقلك شابًّا ، وما ينبغى أن تنحرف عنى حين ينحرف عنك الشباب . إنك لتعلم حق العلم أن شهر زاد خالدة لم يدركها الموت ولن يبلغها الفناء ولن يتحول عنها شبابها . مابالك تشك فى هذا الآن وقد كنت مؤمناً به حين كنت تقرأ كتاب هذا الشاعر العظيم المسكين الذى فارقنا منذ أسابيع . قلت : هنرى دى رينييه؟ قالت : نعم ، لقد قرأت كتابه وعرفت منه أن لى قصراً فى بغداد ، فوددت لو استطعت أن تطير إلى هذا القصر وأن تلقانى وتسمع منى وتتحدث إلىّ ، فماذا يروعك وقد تحققت أمنيتك ، فأنت فى قصرى وهذه يدى فى يدك ، وأنت

تسمع حديثى وأنا أريد أن أسمع حديثك . ؟!

قلت ، وما شككت فى أنى مريض قد أخذنى هذيان الحمى : فأنا إذن فى بغداد فى القصر الذى وصفه هنرى دى رينييه ؟

قالت متضاحكة : كلا ، أنت فى فرنسا قريب من قمة من قمم الألب . ألم تقرأ كتابى هذا الصباح ؟ أليس من حق شهرزاد أن تصطاف كما يصطاف الناس ؟ ومن الذى قضى عليها أن تنفق الدهر سجينة فى قصرها السحرى القائم على شاطىء دجلة ؟ لقد تغير الزمان وارتقت الحضارة وأتيح لشهر زاد أن تسترد حريتها وأن تطوف فى أقطار الأرض ، فتصطاف فى جبال الألب وتشتو فى الريفييرا .

قلت : وما يمنعك أن تنفقى الشتاء مرة فى مصر ؟

قالت : لاشىء لقد هممت بذلك فى الشتاء الماضى لولا هذا الفتى الغريب الذى تسمونه توفيق الحكيم ، هو الذى ردنى عن مصر بكتابه هذا الذى لم أحبه ولا أستطيع أن أحبه .

قلت متعجباً : لماذا ؟ !

قالت : لأنه كشهريار لم يفهمنى وما أظنه سيفهمنى .

قلت : وهل فهمك أحد ؟

قالت : وما حرصكم على أن تفهمونى ؟ وما هذا المرض الذى أفسد عليكم كل شىء فأغراكم بفهم كل شىء ؟

قلت : مهلا ياسيدتى لاتغضبى ، فإنى لم أفهمك ولم أحاول فهمك ولن أحاوله ، لأنك أحب إلى وآثر عندى وأجمل فى نفسى من أن أمسك

بهذا السوء الذى نسميه الفهم واستكشاف الحقائق .

قالت ، وقد ملأها الرضى والابتهاج واستوت جالسة : لهذا أحببت أن أراك ؛ لأنك ترى مثل ما أرى وتؤمن بأن من فهم شيئاً فقد قتله ، وتحب لى أن أحيا فى نفسك فلا تحاول أن تقتلنى بالبحث عن حقيقتى والجد فى الانتهاء إليها . ولكنك لا تعلم من أمرى كل شىء .

قلت : ولا أريد أن أعلم من أمرك كل شىء .

قالت فى لهجة المتعبة المحزونة : شىء واحد أحب أن تعلمه حتى لا يكون حبك لى إعجاباً كله ، فقد يرضينى أن يكون فى هذا الإعجاب بى شىء من الإشفاق علىّ .

قلت : وما ذاك ؟

قالت فى تهالك وفتور : علة أخذت تعتادنى منذ حين ، هى ضيق الصدر الذى يلم بى إذا جن الليل فيحرمنى الراحة ويحول بينى وبين النوم . وليست فى الدنيا شهر زاد أخرى تستطيع أن تذود عنى هذا الضيق وتسلينى عن هذا الحرج وتقص على من القصص ما يدعو إلى النوم كما كنت أفعل أنا مع شهريار فى سالف الأزمان .

قلت ، وقد أشرق وجهى وامتلأ قلبى بشراً وانطلق من فمى ضحك لم أحس ملاحظته وتنظيمه ، واندفع فى جسمى نشاط لم أستطع كبحه ، وإذا أنا أرفع يدها الرشيقة الناعمة إلى شفتى فألثمها لثماً متصلاً وهى تلحظنى دهشة متعجبة .

قلت حين عاد إلى الهدوء : لا بأس عليك ياسيدتى ، علة

طارئة لن تلبث أن تزول ، سأردها عنك منذ الليلة ، سأصف لك الدواء الذى يردها عنك آخر الدهر .

قالت متلهفة : وكيف ذاك ؟ وما ذاك ؟ ماذا تقول ؟ أجاد أنت ؟ أصادق أنت ؟ لقد عهدتك مشغوفاً بالمزاح ؟

قلت وقد عدت فأشبعت يدها لثماً وتقبيلا : والمزاح وحده شفاؤك من هذه العلة ياسيدتى ، فلأدعون إليك النوم من ليلتك هذه ، ولأعلمنك كيف تدعينه منذ غد .

قالت : وكيف يكون ذلك ؟

قلت : ستتخذين لك سميراً .

قالت مبتسمة فى شىء من السخرية : وستكون أنت هذا السمير ؟

قلت محزوناً : ليتنى أصلح لذلك ياسيدتى إذن أكون أسعد الناس .

قالت : أولا تصلح أنت لذلك ؟

قلت : كلا ياسيدتى ، أنا أقل الناس حظاً من الخيال وأعجز الناس عن القصص ، وأضيقهم بنفسى وبالوقت ، ولولا أن الله قد ملأ الدنيا كتباً وأذن أنها ستظل أبداً مملوءة كتباً لما استطعت لهذه الحياة احتمالا .

قالت : ومن لى إذن بهذا السمير ؟

قلت : وأنا لك به ياسيدتى ، إنه صديقك العزيز عليك ، الأثير عندك ، الحبيب إليك :

قالت : أوجز

قلت : إنه توفيق الحكيم ، وهو منك قريب ليس بينك وبينه إلا ما كان بينك وبيني من الأمد حين كتبت إلىّ ، إنه فى الفندق الذى أنا فيه.

قالت ، وقد ملأها النشاط وأخذها الاهتمام وامتزج فى صوتها الغضب والفرح معاً : هو إذن هنا هذا الآثم ، ليعلمن كيف تكون الكتابة عن شهرزاد.

قلت : ولتعلمن أنت ياسيدتى كيف يرضيك إذا أقبل النهار ، وكيف يسليك إذا أظلم الليل ، لو تعلمين كيف سقط على قريتنا هذه النائية المعتزلة سقوط الندى.

قالت : كيف سقط على هذه القرية ؟

قلت : سبقته إليها البشائر بمقدمه السعيد ، او رأيتنا والباب يطرق علينا طرقاً عنيفاً مع الصبح حتى إذا فتحنا للطارق رأينا ساعى البريد يحمل إلينا كتاباً مستعجلاً من صاحبك ينبئنا فيه بمكانه من باريس ورغبته فى أن يلحق بنا ويسألنا أن نختار له فندقاً يأوى إليه وغديراً يصطاد السمك فيه . وما نكاد ياسيدتى نفرغ من قراءة الكتاب حتى يطرق الباب علينا طرقاً عنيفاً فإذا فتحنا للطارق رأينا ساعية البرق تحمل إلينا رسالة من صاحبك ينبئنا فيها بأنه قد ركب

القطار ولم ينتظر رجع الجواب ، ونحن نلتمس له الفندق ونلتمس له الغدير ونلتمس له المواضع التي يجد فيها أدوات الصيد ، وهو يقبل مع المساء كما تعرفينه .

قالت : ومتى عرفته ؟

قلت : ألم تعرفيه من كتابه عنك ؟

قالت : كيف أقبل عليكم ؟

قلت : أقبل كما ستعرفينه يقظان كالنائم ، حاضراً كالغائب ، وغائباً كالحاضر ، قد أخذ من باعة الصحف ما استطاع أن يأخذ ، وأخذ من باعة الكتب ما استطاع أن يأخذ وقضى نهاره في القطار بين الكتب والصحف مختلساً بين حين وحين نظرة من نافذة العربة ، مفتوناً بما يرى ، حتى إذا اطمأن به المكان بيننا أخذ يتحدث فإذا هو دهش لكل شيء ، سائل عن كل شيء ، عارف بكل شيء جاهل بكل شيء ، يتحدث عن الجو ، ثم يثب إلى مقالة قرأها في هذه الصحيفة ، ويتحدث عن الجبل ثم يقفز إلى فصل قرأه في ذلك الكتاب ، يقبل على الطعام ويأخذ فيه ولكنه مشغول بالنشاط الأدبي في مصر ، وبهذا الفصل الذي كتب عن ذلك المعرض الفني في باريس ، ثم يصبح مشغولاً بالصيد مشغوفاً به ، متهالكاً عليه يلتمس له أدواته ويعدها ويهيئها ، وهو يفكر فيك وفيما آل إليه أمرك ، وفي كتابه عنك وفي ترجمة هذا الكتاب إلى الفرنسية وفيما يمكن أولا يمكن من تمثيل قصتك .

قالت وقد نهضت مغضبة : ويل له ، أو يريد أن يظهرنى فى الملاعب ويعرضنى على النظارة ويسلمنى إلى الممثلين؟

قلت فى شيء من المكر : أظنه يطمع فى ذلك ياسيدتى .

قالت : ليعلمن ما جزاء من يعبث بشهرزاد.

قلت : لاتنغصى عليه راحته ، إنه سعيد راض مبتهج مغتبط يزور الجبال لأول مرة ، لو رأيت ابتهاجه حين استكشف فى الغابة شجرة البندق . لقد كان يأكل البندق جافًّا ويأكله رطباً ، ويأكله صرفاً ويأكله ممزوجاً ، ويعرف أنه ثمر لشجر ، ولكنه لم يكن يعرف أين يكون ؟ ولا كيف يكون ذلك الشجر ؟ فلما رآه ورأى عليه ثمره لم يملك نفسه ابتهاجاً واغتباطاً . وما أرى إلا أنه سيكتب عن شجر البندق فصلا أو كتاباً ، وما أرى إلا أنه سيحدث بين الشجر وثمره حواراً لذيذاً . لاتنغصى عليه راحته ياسيدتى ، لقد رأى الثلج يغطى رؤوس الجبال لأول مرة ، وكان يقرأ ذلك فى الكتب ويسمع عنه فى الأحاديث وما كان يقدر أنه سيراه ، فلما رآه لم يسع نفسه فرحاً وسروراً ، وأقسم لايطمئن ولا يستريح حتى يدنو منه ويتصل به ، ويملأ منه يديه ، ولو استطاع لاحتمل منه ذخيرة إلى مصر .

لاتنغصى عليه راحته ياسيدتى . لقد قرأ وصف الجبل الأبيض حين كان تلميذاً وطالباً ، وسمع أخباره من السائحين ، ولم يخطر له قط أن الجبل الأبيض شيء يرى ؛ فلما رآه كاد يخرج عن طوره ، لولا أن تمالك واصطنع الوقار ، وهو يقسم لنا جهد أيمانه ليصعدن فيه

وليبلغن قمته ، فإذا صعبنا له ذلك قال فى براءة الصبى النقى : ماذا ؟ أليس يكفى أن أغدو إليه مع الصبح وأعود منه حين ينتصف النهار فأدرك معكم الغداء ؟

* * *

وأنا مندفع فى هذا الحديث عن صديقى الأديب وقد شغلت به بعض الشيء، ولكن صاحبتى مغرقة فى ضحك متصل لا يريد أن ينقضى ، قد ردها إلى مكانها بين الوسائد لأنها عجزت عن القيام فسكت عنها حيناً حتى سكت عنها الضحك.

وإذا هى تسألنى : أهو من السذاجة بحيث تصف لى ؟

قلت : وما وصفت لك من سذاجته إلا أقلها .

قالت : فإن كتابه يصوره معقداً أشد التعقيد .

قلت : هو كذلك معقد أشد التعقيد ، فاتخذيه لك سميراً فستجدى عنده السذاجة المريحة حين تحتاجين إلى الراحة ، والتعقيد المضنى حين تحتاجين إلى الجد والتفكير .

قالت : وسيجد عندى مالم يعلم من أمر شهرزاد .

وكان الخدم قد أقبلوا يحملون ألواناً من الطعام والشراب لا علم لنا بها ، فلما وضعوا ما كانوا يحملون وهموا أن ينصرفوا استوقفت أحدهم ، وقالت له : فى الفندق الذى ذهبت إليه صباح اليوم مصرى يقال له توفيق الحكيم فإذا كان الغد فإنى أريد أن أراه .

سمع الخادم أمر سيدته فانحنى وانصرف .

ولست فى حاجة إلى أن أتم لك بقية ما كان بينها وبينى من حديث، فما أظن أن ذلك يعنيك وإنما هو يعنينى أنا ويعنى شهر زاد، وحسبك أن تعلم أنى ودعتها آخر الليل وأنها لمطمئنة النفس قد زال عنها الحرج وتهيأت لاستقبال ساعات نوم لذيذ. وأصبحت ألتمس توفيق الحكيم فى غرفته وفى حديقة الفندق وعند غدير الصيد وفى مظانه من القرية فلا أجده. فأظن أنه ذهب متنزهاً فى طريق من هذه الطرق الخضراء الفيحاء وأنه سيعود إلينا مع الظهر أو مع المساء، ولكنه لا يعود مع الظهر ولا مع المساء، فما أشك فى أن أعوان شهر زاد قد اختطفوه وفى أنه سجين هناك فى ذلك القصر السحرى القائم عند قمة هذا الجبل من جبال الألب.



سبین شہرزاد

(شهر زاد تتمطى بجسمها المشوق
كالحسام بين وسائدها الحريرية)

شهر زاد (للعبد القائم على رأسها) : هل تم خطف توفيق الحكيم ؟

العبد : خطفناه يا مولاتى !

شهر زاد : وماذا فعلتم به ؟

العبد : ألقيناه فى جب القصر المسحور .

شهر زاد (ضاحكة عن در منضد) : هذا الساذج المعقد !

العبد : معقد !؟ هذا الرجل؟ كلا يا مولاتى .

شهر زاد : كيف؟ ماذا رأيتم؟

العبد : إنه السهولة بعينها . لم نكد نقبل عليه بسلاحنا حتى خلع فى الحال معطفه وعصب ببعضه رأسه واتقى ببعضه جسمه ، ثم انطرح على الأرض فى هدوء رزين ، وجعل كأنه صريع قد أصيب ، وما وصلت إليه بحديد ، وما لمسته أصبع .

شهر زاد (باسمة) : لقد كفى نفسه شر القتال .

العبد : لما وجهتنا إليه يا مولاتى حسبنا أنا سنلاقى هزبراً .

شهر زاد : (ضاحكة) هزبر ؟ توفيق الحكيم ؟

العبد : بل أكثر من هذا يا مولاتى. قد وجدناه يحمل . . .

شهرزاد : كتاباً . .

العبد : بل « سنارة » مما يستعمل فى صيد السمك الصغير . وقد علق « خطافها » بثيابه ، من الروع لمرآنا !

شهرزاد (وهى تضحك) : ألم تجدوا معه قلماً وورقاً ؟

العبد : كلا . .

شهرزاد : لم تجدوا معه غير « سناة » صاد بها نفسه !!

العبد — بل أنا يا مولاتى لم نجد معه « طعماً » مما يجتذب به السمك . ولم نجد معه سلة يضع فيها ما يصيد . كل ما معه ذلك العود من « الغاب » الذى لا نفع فيه ولا ضر .

شهرزاد (كالمخاطبة لنفسها) : نعم . إنى أعرف هذا الصنف من الرجال . إنه لن يصطاد سمكة فى حياته ، ولا أحسب أنه يذهب يوماً إلى بحيرة أو نهر أو بحر ، إنما هو يخلق فى رأسه كل الرغبات ، ويعد للوصول إليها المعدات ، ويغمر نفسه فى ذلك الجو الذى ابتدعه بخياله . حتى إذا كان على بعد خطوة من التنفيذ والحقيقة ، انتهى حلمه ولم يعد يعنيه من الأمر شىء

العبد : أو مثل هذا الإنسان نائم أو يقظان ؟!

شهرزاد (على الفور) : إنه نائم كاليقظان ويقظان كالنائم

العبد : مولاتى . . . .

شهرزاد : مابك ؟

العبد : إنك . . . ترددين العبارة التى قالها هنا البارحة ذلك الرجل الذى كنت تنادينه بالدكتور .

شهر زاد (كمن يثوب إلى نفسه) : طه حسين !

العبد : من هذا الرجل ؟ إنى أراه . .

شهر زاد : تكلم !

العبد : شديد الدهاء . .

شهر زاد (باسمة) : ماذا رأيت من دهائه؟

العبد : لست أدرى على التحقيق . إنما فى كلامه وابتسامه شيء ينم عن سر مبهم وغرض خفى .

شهر زاد : رح . إنك لست أعرف منى بالرجال . ليس فى الأمر سر ولا غرض ، إنما هذا الدكتور رجل صريح مستقيم ، وقد أشار على بأمور سأعمل بها .

العبد : هو الذى أشار بخطف هذا الرجل المسكين ! ؟

شهر زاد : أيها العبد ! الزم مكانك ولا تعترض علىّ .

العبد : عفواً يا مولاتى وغفراً ! إنك تعرفين إخلاصى وخضوعى . إنها زلة لسان .

شهر زاد : هذا الرجل المسكين إنما هو مسكين حقًّا إذا تركناه حرًّا طليقاً ، إنما ينبغى أن نقتنصه ونحبسه فى هذا القصر المسحور لتزهر حياته ويبدو معدنه وتظهر قيمته .

العبد : من هذا الذى لا تزهر حياته إلا فى الحبس ! ؟

شهر زاد : إنه ليس مثلك. إنه خلق ليبقى إلى جانبي يبادلني الفكر .

العبد : فهمت ، تريدين سميراً يؤانسك فى أوقات الضجر .

شهر زاد (كالمخاطبة لنفسها) : نعم ، إنى الآن فى سأم دائم ؛ لأنى لا أجد ، بعد شهر يار ، عقلاً وخيالاً يبهران عقلى وخيالى .

العبد : إن الملك شهريار ذهب ولم يعد.

شهر زاد (كالمخاطبة لنفسها) : نعم ، لقد أضعته أنا ، لقد كان حرًّا طليقاً مرحاً كالطفل ، فأوحيت إليه بأشياء كبرى مستحيلة ؛ ذهب يبحث عنها فلم يعد .

العبد (كمن نسي نفسه) : وقمر ، وأنا . . كل الناس كانوا أحراراً قبل أن يعرفوك !

شهرزاد (تثوب إلى نفسها) : ماذا تقول ؟

أجننت أيها العبد ! أنت تخاطبنى بهذا الكلام ؟ أنسيت ما قلت لك : إن الماضى قد مات ، وإذا أردت أن تبقى حيًّا فكن خادماً لا يذكر شيئاً مما كان .

العبد : غفراً يا مولاتى . إنها كانت أيضاً زلة لسان .

شهر زاد : آه ! إنى لفى ضجر . أو لم يعد عقلى قديراً على أن يوحى إلى أحد بشيء . . . ما هذا الشقاء !

العبد : أتأذنين ، أأحضر السجين بين يديك ؟

شهرزاد : نعم إنه الآن كل رجائى .

العبد : يا مولاتى ، لاتضعى كل أملك فى هذا المخلوق المسكين ! إنه غير قدير على صيد سمكة !

شهر زاد : ربما كان قديراً على صيد عقل .

العبد : حاشا أن يكون عقلك يامولاتى أهون اقتناصاً من السمك !

شهر زاد : أيها الأحمق ! لامحل هنا لتلك المقارنة .

العبد : ومع ذلك . ألا تذكرين قول ذلك الدكتور !

شهر زاد : ماذا قال ؟

العبد : قال البارحة إن هذا الإنسان لم يفهمك قط . . .

شهر زاد : سنرى .

العبد : متى تريدين رؤية السجين ؟

شهر زاد : الآن .

(يذهب العبد مسرعاً . . وتبقى شهر زاد بلاحراك تفكر لحظة ، ثم تنهض فجأة وتتجه إلى مرآة فى ركن مظلم ناء فى أقصى المكان ، وتأخذ فى إصلاح هندامها وتنظم شعرها وصبغ شفتيها وأظافرها . .)

العبد (يعود وهو يقود توفيقاً الحكيم بمعطفه الأسود و « سنارة » صيده) : تقدم يا هذا !

توفيق : (للعبد) إلى أين أيضاً ؟!

العبد : قلت لك تقدم !

توفيق (يتأمل ما حوله ويخاطب نفسه) : أما أنى خطفت فهذا

لاشك فيه . نعم . إن صحت فراستى وصدقت فطنتى فأنا الآن مخطوف . (يستدرك متنبهاً لما قال) ما هذا الحمق ! أهو أمر يحتاج إلى فراسة وفطنة أن أعرف أين أنا الآن ؟ إنى أكاد أجن جنوناً . أخبرنى أيها الأسود ! (يتأمل العبد ويخاطب نفسه معجباً) ما أصلح هذا الأسود لتمثيل دور « العبد » فى قصتى « شهر زاد » ! . . (يمسك بذراع العبد) أخبرنى أيها . . .

العبد (يلمح مولاته مقبلة إلى وسائدها فينهر سجينه) : صه ! . .

توفيق : ماذا جرى ؟

العبد (همسا) : اركع !

توفيق : ماذا جرى ؟

العبد (همسا) : أركع !

توفيق (لايفهم) : أركع ؟ لماذا ؟ لمن ؟

شهر زاد (تبدو فى جمال وجلال ودلال) : هذا أنت ؟!

توفيق (يلتفت إلى الصوت الموسيقى مشدوهاً لايتمالك إلا أن يركع من تلقاء نفسه فى غير وعى) ؟

شهر زاد (تبتسم راضية ثم تهمس إلى العبد) : اتركنا ،

العبد : (ينصرف وهو يلقى على السجين الراكع نظرة استغراب لحاله واضطرابه) ؟

شهر زاد (للسجين فى صوتها العذب) : انهض !



توفيق : (ينهض وهو مطرق)

شهر زاد (باسمة) : عرفتنى ؟

توفيق (فى صوت خافت ولم يزل عنه بعد أثر الدهش) : نعم .

شهر زاد (معجبة مغتبطة) : لايدهشنى ذلك منك ، فأنت عقل كبير وخيال واسع .

توفيق : (ينظر إليها ولا يفهم عنها)

شهر زاد : لماذا تنظر إلىّ هكذا ! ألا تصدقنى ؟

توفيق : أ . . و . . تعرفيننى . . ياسيدتى ؟

شهر زاد : كيف لا . إنى أعرفك كما تعرفنى . ولقد كان ينبغى أن يلقى أحدنا الآخر .

توفيق (لنفسه) : أرجو أن ينتهى هذا اللقاء على خير !

شهر زاد : ما هذه النظرة الحيرى ! ألا يسرك أن ترانى ؟

توفيق (مندفعا بتأثير جمالها) : بالطبع . إنه لشرف عظيم . . (ثم يتذكر فيستدرك :) كلا . . إنه ليس كذلك .

شهر زاد (فى تقطيب) : ماذا تقول ؟

توفيق : سيدتى ! لماذا أنا ههنا ؟

شهر زاد (باسمة) : إنك جئت كى ترانى وأراك.

توفيق : فقط ؟ كلا يا سيدتى . فى الأمر ولاشك غلط ! أنا رجل من أهل مصر أضنانى التعب والجهد طوال أعوام قضيتها فى

قراءة وكتابة وأعمال رسمية بغير هدنة أو انقطاع ، فجئت هذا الصيف إلى جبال الألب للنزهة وراحة البال. لكن ... بينا أنا أسير الهوينا فى المساء فى ذلك الطريق المؤدى إلى شاه‌ونيكس، أستنشق النسيم المعطر بأريج أزهار التفاح والبندق، القائمة أشجاره فى الغابات الخضراء بسفح الجبل ذى القمة البيضاء. إذا رجال مدججون بالسلاح . . .

شهر زاد (باسمة) : أعرف . . أعرف ؛ ولقد قاومتهم أنت مقاومة الهزبر!

توفيق : فعلت ما استطعت ، ولكن الكثرة تغلب الشجاعة .

شهر زاد (تخفى ضحكها) : صدقت : أيها الشجاع !

توفيق : وبعد يا سيدتى ، ومتى يخلى سبيلى ؟

شهر زاد (فى دلال) : أبهذه السرعة مللتنا ؟

توفيق : أنت حقًّا على غاية اللطف والظرف والجمال ولكن ...

شهر زاد : ولكن ؟

توفيق : روحى الآن ولاشك بين يديك الصغيرتين . وأنت الآن صاحبة الأمر والنهى . فمرى رجالك بإطلاق سراحى وخذوا مالى وثيابى حلالاً لكم .

شهر زاد (فى تقطيب) : ما ظنك بى ؟ إنك فيما أرى تجهل من أنا .

توفيق : لامع الأسف. لست أستطيع أن أجهلك . إن معرفتك لاتحتاج إلى فراسة ولا إلى فطنة .

شهر زاد (فى ارتياب) : من أنا ؟

توفيق : أنت ولا فخر زعيمة الخطافين .

شهر زاد (فى خيبة مرة) : أنا ؟ (كالمخاطبة لنفسها) أنا التى حسبت أنه عرفنى ! صدق الدكتور . إنه ليس ساذجاً فحسب . إنه أبله . !

توفيق (يرى تغيرها) : ماذا جرى ؟ أترينى غلطت يا سيدتى ؟

شهر زاد : لا

توفيق : أرى وجهك قد تغير .

شهر زاد : يالخيبة الأمل !

توفيق : نعم . كنتم تحسبون أنكم وقعتم على موسر من أصحاب الملايين الأمريكان المصطافين . ولكن رجالك يا سيدتى قصار النظر إذ اختطفوا لك أديباً ، عامر الجيب لا بأوراق البنك ، بل بأوراق النثر !

شهر زاد (ترفع رأسها سريعاً فى أمل) : وهل أنت حقاً عامر الجيب بالنثر ؟

توفيق : لانثر ولاشعر . تركت كل هذا فى مصر وجئت هنا للراحة والسكينة وفراغ البال ؛ (بعد لحظة) وأنت ما يعنيك من أمر الشعر والنثر ؟

شهر زاد : هذا كل ما يعنينى . لقد اختطفتك لنثرك وفكرك .

توفيق (ساخراً) : شىء جميل !

شهر زاد : إن شئون الفكر والعقل والخيال هى كل حياتى .

توفيق : أنت ، يامن تخطفين الناس ليلا من الطرقات ! !

شهر زاد : إنى لا أخطف إلا الموهوبين أمثالكم .

توفيق (فى سخرية) : أستغفر الله !

شهر زاد : ألا تصدق ؟ آه لو عرفت حقيقتى لصدقتنى من ساعتك ولكنك نائم كاليقظان ويقظان كالنائم . تمر بك الحقائق كأنها أشباح وترى الأشباح كأنها حقائق . أأنت واثق بأنك لم ترنى من قبل ؟

توفيق : واثق أنك لم تشرفينى بالخطف قبل الآن .

شهر زاد : انظر إلى عينى الصافيتين !

توفيق : إنهما خضراوان كعيون القطط والسنانير !

شهر زاد : لقد شغفت بهما أنت يوماً ، وكتبت عنى وعنهما كتابا .

توفيق : أنا ؟ أين ومتى ؟ حاشا أن أكتب كتاباً عن امرأة أو عيون امرأة .

شهر زاد : إنى امرأة لا ككل النساء .

توفيق : حقيقة . لم أر مثل جمالك قط . ولو كنت ممثلة ، لما صلحت امرأة فى الوجود غيرك لتمثيل ذلك الدور العسير فى روايتى . العسيرة. ولكنك امرأة على الرغم من جمالها لايعنينى الآن من أمرها شىء فما جئت الجبل أطلب المغامرات إنما أطلب الراحة والسكينة والصفاء .

شهر زاد : ألا أستطيع أن أدخل حياتك فأثير ساكنها ؟

توفيق : وما حظلك من إقلاق راحتى وصفوى ؟

شهر زاد : قد أوحى إليك بشىء .

توفيق : أى شىء ؟

شهر زاد : قصة مثلا أو كتاب .

توفيق : هل أغراك أحد بى ؟

شهر زاد : كلا . (بعد لحظة) هل تعرف طه حسين ؟

توفيق : إنه يقيم معى فى فندق « مون جولى » بسفح الجبل . ماذا جرى له ؟ أخطف هو أيضاً ؟

شهر زاد (كالمخاطبة لنفسها) : كلا . إنه لا يحوجنا إلى الخطف . إنى إذا طلبته فى أى حين أقبل على دائما دون إبطاء . .

توفيق : وكيف عرفته ؟

شهر زاد : إنى أقرأ كتاباته كلها منذ أن حمل القلم ، وأعرف كتبه « الأيام » و « فى الصيف » و « على هامش السيرة » كما أعرف نفسى .

توفيق : أمرك بدأ يدهشنى . من أنت ! أطالبة من طالبات السوربون ؟

شهر زاد : أنا ؟ ألا تعرف من أنا ؟

توفيق : قلت لك لم أنل بعد هذا الشرف .

شهر زاد : ألم تسمع بامرأة تدعى « شهر زاد » ؟

توفيق : سمعت بها حقيقة .

شهر زاد : سمعت بها فقط !! يالك من .. كيف أصفك !

توفيق (يطيل النظر إلى شهر زاد) : أنت !؟

شهر زاد : عرفتني حقاً هذه المرة ؟

توفيق (كالنائم اليقظان) : هي !

شهر زاد (في صوت كالهمس) : نعم . أما كنت تتوقع رؤيتي هنا ؟

توفيق : هي . . في جبال سافوا العليا .! أهذا ممكن ؟ أهذا معقول ؟!

شهر زاد : إنك تعرف أنها تستطيع أن تكون في كل مكان.

توفيق (كالمخاطب لنفسه) : « صورتها كانت تتبعك في كل مكان . . . » .

شهر زاد : نعم ، هكذا قال شهريار عني يوماً لقمر.

توفيق عجباً ! أنت إذن هي التي أوحت إليّ بكتابي . أنت هي التي خرجت من عقلي وفكري ! ومع ذلك يا شهر زاد. تخطفينني اليوم وتحبسينني بين جدران هذا القصر الكبير ؟!

شهر زاد : (باسمة) وأنت أيضاً ، ألم تخطفني وتحبسني بين دفتي كتاب من القطع الكبير !؟

توفيق : آه تنتقمين إذن ! ولكنك قد أسرفت وغلوت . فأنت قد خطفتني وحبستني في الواقع والحقيقة .

شهر زاد (في ابتسامة غامضة) : الحقيقة !

توفيق : هذا ما لا شك عندى فيه .

شهر زاد : دع الحقيقة فى مكانها هادئة .

توفيق (ينظر إليها مليًّا) : يا للعجب ! نعم إنى قد عرفت الآن ابتسامتك الغامضة ! أنت هى شهر زاد بلا مراء ، كما بدت فى مرآة فكرى لأول مرة . أتأذنين لى فى لثم يدك طويلا . ؟

شهر زاد : (باسمة وهى تمد يدها) طويلا ! إنكم معشر الأدباء سواء !

توفيق : هل أطال أديب غيرى لثم يدك ؟

شهر زاد (كالمخاطبة لنفسها) : البارحة فى منتصف الليل !

توفيق : ماذا تقولين ؟

شهر زاد (تلتفت إليه فجأة) : اسمع منى ! أتعرف لماذا طلبتك ؟

توفيق : لا

شهر زاد : آه ! ما أحوجنى اليوم إلى سمير يبقى إلى جانبى يزيل عنى السأم !

توفيق : أنا ؟ !

شهر زاد : ولم لا ؟

توفيق : أو لم تجدى فى هذا الخلق من يصلح غيرى لهذا المنصب الخطير !

شهر زاد : ليس فى الوجود غيرك . لقد دلنى عليك صديق أثق بحكمه وذوقه ورأيه .

توفيق : أهو صديق لك أم لى ؟

شهر زاد : لكلينا.

توفيق : إن صدقت فطنتى وفراستى فهو طه حسين ، اسمعى أيتها الجميلة ! لقد لعب بك هذا الصديق الذى تثقين بحكمه وذوقه ورأيه . فأنا آخر من يصلح لمسامرة الملكات الضجرات فى ليالى الصيف المقمرات !

شهر زاد : سنرى .

توفيق : المسألة لا تحتاج إلى تجربة . إنى رجل جئت من مصر طلباً للكسل وبحثا عن راحة البال .

شهر زاد : سمعت هذه العبارة منك ألف مرة ومرة !

توفيق : سيدتى العزيزة ! لو سألتك أمنية غالية .

شهر زاد : كل أمنية لك مجابة مهما غلت .

توفيق : أريد أن تتركينى أتثاءب .

شهر زاد : إلا هذه . أنت ما خلقت لهذا .

توفيق : آه ! كم أضيق الآن ذرعا بهذا الصنف من النساء!

شهر زاد : أتسمع نصحى ؟ اذعن لما كتب عليك . ولا تكن عنيداً كشهريار فى أول أمره. إنك باق إلى جانبى تسامرنى رضيت أو أبيت . فلا تضطرنى إلى العنف والإكراه .

توفيق : العنف ! كلا ، لا لزوم للعنف بعد الآن . كفى ما حصل من خطف وقبض وسجن . أسامرك وأمرى لله ! (كالمخاطب

لنفسه) ولكن الله يتولى جزاءك يامن أغريت بى وحرضت علىّ .

شهر زاد (تستلقى على الوسائد وتضع رأسها فى راحتيها) : الآن حدثنى عن أثر جبال الجليد فى نفسك ، وعن الغابات الخضراء . وعن ثمر البندق . هل حقًّا استكشفته وأكلته بقشره ! !

توفيق : يحدثك عن كل هذا الذى أخبرك به . فهو قدير على وصف ذلك بالإبداع الذى وصف به جبال « الفوج » فى كتابه « فى الصيف » وأنت تعرفينه كما تعرفين نفسك !

شهر زاد : ولكنى أريد أن أسمع منك أنت ما حدث لك .

توفيق : ماذا حدث لى ؟ لقد نسيت .

شهر زاد : ألا تريد أن تقص علىّ ؟ !

توفيق (فجأة) : صه ! قد خطرت لى فكرة نورانية . أتريدين قتل الضجر ؟ عندى له دواء ناجع . هلمى بنا .

شهر زاد : إلى أين ؟

توفيق : إلى البحيرة . هذه « سنارتى » وآتى لك « بسنارة » ثم نذهب معًا نصطاد سمكاً . . من سمك « التروبت » الذى تعج به البحيرة والجداول المنحدرة من الجبال .

شهر زاد : أنا أصطاد سمكاً ؟ !

توفيق : وما الضرر ؟

شهر زاد : أهذا رأى تراه لى ؟ ! يالك من . . ماذا أقول لك ؟

توفيق : إنى لا أرى فى ذلك سبة . لقد كان أبوك صياداً .

شهرزاد أبى ؟

توفيق ــ لقد قرأت ذلك بعينى فى نسخ عدة من كتاب ألف ليلة وليلة .

شهرزاد : إنك قد جاوزت حدك يا هذا .

توفيق : صدقت . وإنى لا أستحق منك الآن غير الطرد خارج هذا القصر .

شهرزاد : إنى لستِ بلهاء فأفعل ذلك . إنك باق هنا كى تسامرنى . . هلم . ! سامرنى !

توفيق : لا حول ولا قوة إلا بالله !

شهرزاد : إن كنت لا تجد من الحقائق معيناً فأين الخيال؟!
هل نضب خيالك هكذا وشيكاً ؟!

توفيق : يظهر لى أنه نضب .

شهرزاد : واخجلاه ! هذا مؤلف وروائى وأديب يعجز عن مسامرتى ليلة واحدة . وأنا التى سامرت ملكا جاهلاً غشوماً ألف ليلة وليلة !

توفيق : كلنا نعرف لك هذه العبقرية .

شهرزاد : كنت أحسبك تستطيع أن تستنبط لى شيئاً يسحر لبى !

توفيق : انى أستطيع شيئاً .

شهر زاد : ما هو ؟

توفيق : أستطيع أن أصغى إليك.. تكلمى أنت واستنبطى ما شئت وأنا أصغى .

شهر زاد : هذا بديع ! اختطفتك وجئت بك إلى هنا كى أسامرك أنا ؟!

توفيق : إنك خلقت كى تتكلمى أنت .

شهر زاد : ماذا تقول ؟

توفيق : أقول إن كل عملك فى الوجود أن تتكلمى فيصغى إليك الناس . لا كل الناس . بل المجدودون والموهوبون !

شهر زاد : صدق طه حسين . إنك معقد ! بل أكثر من معقد . إنك خبيث !

توفيق : وطه حسين ! أهو البراعة بعينها ؟ ألا تعرفين أنه مكر بك مكراً جميلا .

شهر زاد : كيف ذلك ؟

توفيق : إنه هو الذى كان يستطيع أن يسامرك أبدع المسامرة . ولكنه مشغول ليله ونهاره « بالمتنبى » ولقد أغراك بى ليفلت هو ويخلص إلى شاعره . وهكذا آثر « المتنبى » على « شهرزاد » . .

شهرزاد : أهو فعل هذا ؟

توفيق (منتصراً) : عليك به ! وخطفه هين سهل . فهو يجلس حيناً بمفرده يفكر تحت شجرة الزيزفون الكبيرة فى حديقة الفندق ، وأحياناً يجلس معه صاحبه « فريد » يقرأ له . ولا جناح ولا تثريب فى خطفهما معاً .



من شهرزاد

سمعت شهر زاد من أسيرها هذا الإغراء فرفعت كتفيها الجميلتين رفعاً رفقاً أنيقاً لايكاد يحس وقالت فى سخرية لم يلحظها الأسير الأديب : « رأى موفق » . ثم تناولت قضيباً دقيقاً من العاج فمست به إناء أجوف من الفضة سمع له صوت فيه عذوبة وخفاء ، وانفرجت له أستار جانبية من القطيفة المقصبة ، وخرج من بين هذه الأستار ثلاث فتيات حسان قد اعتدلت قاماتهن أجمل اعتدال وصورت وجوههن أحسن تصوير ، تقدمن فى خطى متزنة متقاربة حتى إذا دنون من سيدتهن انحنين فأطلن الانحناء ، ثم استوين فأحسن الاستواء، والأسير قائم ذاهل يردد طرفه الحائر بينهن و بين سيدتهن لايفهم شيئاً ولا يقول شيئاً ، وشهرزاد تنظر إليه وعلى ثغرها ابتسامتها الغامضة وتقول له فى صوت تملؤه الأناة والمكر والدهاء والشعور بقوة الملك والسلطان معاً : « لايزغ بصرك ياسيدى ولا تسرع إليك الفتنة فإنك لم تتجاوز بعد أول الطريق » .

ويختلط الأمر على الأسير فيذهب عنه ما كان قد أظهر من تجلد واصطنع من وقار ، ويسوؤه أن قد نفذت شهر زاد إلى نفسه فرأت اضطرابه وتردده وحيرته بين هذا الجمال الخالد الذى استقر بين الوسائد الحريرية ، والذى كان يحاوره منذ حين ، وهذا الجمال الرائع الذى انفرجت عنه الأستار ،ويهم أن يجمجم معتذراً ، ولكن شهر زاد

تخفف عليه المؤونة وتضع عنه الوزر ، وتتجه إلى هؤلاء الفتيات الحسان قائلة :

خذن هذا السيد ، فأصلحن من أمره وهيئنه لمسامرتى ، ثم عدن به إلى إذا صارلها أهلا . . !

هنالك يطيش لب الأسير ويغيب رشده ويفارقه صوابه ، فيسأل بماذا تأمرين يا سيدتى ! وماذا تريدين أنيصنع بى ! وإلى من تسلمينى ؟! . .

فتجيبه شهر زاد مبتسمة فى شىء من القسوة ، ألم تنظر إلى المرآة ؟ ألم تر أنك أشعث أغبر ؟ أتظن أنك على هذه الحال الرثة تصلح لمسامرة الملوك ؟

قال الأسير :

سيدتى إنى لا أصلح لشىء ولم أطلب شيئاً إلا أن أرد إلى حيث كنت وأعود حرًّا طلقاً أطوف فى المسالك والطرقات حول سالنش وألتمس غديراً أصطاد فيه السمك .

قالت : ولكن الله أراد لك أن تمسى لى سميراً .

قال : وأنت تسلمينى إلى هؤلاء الفتيات الحسان فماذا تريدين أن يصنعن بى ؟

قالت : يصلحن من أمرك ويزلن عنك ما ركبك من الغبار وما علاك من شعث ، يجرين المشط والمقص على رأسك ، وينزهن الموسى فى لحيتك هذه ، ويأخذن من أظافرك ويبدلنك من ثياب المدينة

هذه ثياب القصر ، ثم يردنك إلىّ سمحاً طلقاً لاتقتحمك العين ، ولا يتجافى الطرف عن النظر إليك .

قال مرتاعاً : وهن اللاتى سيصنعن بى هذا كله؟

قالت : ومايسوؤك من ذلك .

قال : ما أعرف والله ما يسوؤنى مما يسرنى ، ولكنى أتوقع يوماً كيوم بفنوس .

قالت : فى قصة أناتول فرانس لقد ألهمته هذه القصة فى ساعة من ساعات فراغه وفى لحظة من لحظات عينى . ولكن لابأس عليك فما أنت بالقديس وما أنا . .

قال مسرعاً : عفواً يا سيدتى .

وأشارت هى إلى الفتيات أن أسرعن ، فأحطن به ودفعنه دفعاً يسيراً إلى ماوراء الأستار .

وخلت شهر زاد إلى نفسها فأخذت قلمها وكتبت إلىّ هذا الكتاب الذى ألفيته من الغد على مائدة صاحبى لم يحمله إلى ساعى البريد ، ولم يعرف صاحبى كما لم أعرف كيف وصل إلينا .

« سيدى :

« لك منى الشكر المضاعف والتحية الخالصة ، لقد وجدت فى زيارتك إياى راحة وترفيهاً علىّ ، ولقد استقبلت بعد انصرافك عنى نوما هادئاً مطمئناً ، ولقد نصحت لى فصدقت النصح ، وأشرت على فأحسنت المشورة ، فقد خطف أصحابى صديقك الأديب وحملوه

إلىّ على الحال التى كان عليها فى طريق من طرق سالنش أشعث أغبر مهملاً قد اختلط أمره وهو يحسب أن الرشد لم يفارقه ، وامتلأ قلبه روعاً ورعباً وهو يظن أنه أشجع الناس.

« حملوه إلىّ وقد اتخذ معطفه ترساً يتقى به ما أقبل عليه من شر، ولم يخطر له أن يقاوم المعتدين عليه حتى بعصا الضيد هذه التى كان يهزها فى يده كما يهز الفارس العربى رمحه السمهرى. ولم أكد أراه وأسمع له حتى استيقنت أنه ، كما أنبأتنى، ساذج برىء . زعم أنه شجاع وأنه ذادعن نفسه ما استطاع ، ولم يقدر أن الذين حملوه إلىّ قد أنبأونى بما لقوا من مقاومته وما بلوا من حسن دفاعه عن نفسه. ولكنى لم أكد أحاوره وأطيل معه الحديث حتى تبينت أنه — كما أنبأتنى عنه — معقد شديد التعقيد ، فقد أخذ يداورنى ويماكرنى ويلقى إلى جملا ذات وجهين وأخرى ذات أوجه . راعه أنى اتخذته سميراً فأراد أن يخلص من هذه الخدمة التى يتهالك عليها كثير من الأدباء وتتقطع دونها أعناق كثير من أصحاب المواهب والنبوغ . فسلك إلى هذا التخلص طرقاً أيسر ماتوصف به أنها يسيرة كل اليسر ملتوية كل الالتواء . ألم يطلب إلى أن آذن له فى أن يتثاءب ؟ أرأيت أديباً يتثاءب فى حضرة شهر زاد ؟ ألم يعرض على أن أصحبه إلى الغدير أو البحيرة لنصطاد السمك معا ؟ . فلما لفته إلى أن شهر زاد لا ينبغى لها أن تصطاد السمك لم يخف من أن يذكرنى بأن أبى كان صياداً .

« إنه لساذج كل السذاجة ، معقد كل التعقيد . لقد كان يدفعه

تعقيده إلى أن يمكر بى وينثر لى الشباك والأشراك ، ولقد كانت سذاجته تخيل إلى أنى قد انخدعت لمكره ووقعت فى حبائله . فقد كان يفهم كلامى على وجهه ولا يقدر أنى أستطيع أن ألقى مكراً بمكر ، وعبثاً بعبث وخداعا بخداع . له الله ، إنه يظن أن المكر وقف عليه ، وأن الدهاء لم يخلق إلا له . إنه قد فهم كيد النساء فظن أنه أبلغ كيداً من النساء ، ولكنى ملكت أمرى أكثر مما ملك أمره ، فخيلت إليه وخيل هو إلى نفسه أنى لم أنكر مما قال شيئاً ، وأظهرت له يأسى منه وخيبة أملى فيه وفى قدرته على أن يسامرنى ويطرد عنى الحرج والضيق . فسره ذلك وأرضاه وظن أن انتصاره محقق وأن الإفراج عنه قريب ، ولست أريد أن أغريك به ولا أن أفسد ما بينك وبينه من الود ، فأنا حريصة على أن تصلح الأمور أبداً بينكما ، ولست أريد أن أعاتبك ولا أن ألومك ، فإنى لم أصدق ما قال فيك ، ولم أنخدع بكيده لك ، ولكنى أريد أن أؤكد لك أنه ساذج حقًّا . فقد زعم لى وظن أنى سأصدق ما زعم لى ، زعم لى أنك رغبتنى فى مسامرته لتفلت أنت من هذه المسامرة وتخلو إلى شاعرك الذى أنت مشغول به ، والذى تؤثر الاستماع له والتحدث عنه على مسامرة شهر زاد .

« وقد رأى منى ما أقنعه بأنى مصدقة محنقة مفكرة فى الانتقام فتجاوز الكيد إلى الإغراء ، وعرض على أن أخطفك كما خطفته ، ويسر على أمر خطفك من حديقة الفندق تحت شجرة الزيزفون ، أو من هذه الغرفة التى تخلو فيها مع صاحبك إلى شاعرك هذا الذى

يشغلك فى هذه الأيام . وقد أظهرت له قبول رأيه ، فلا تسل عما ملأ قلبه وظهر على وجهه من الغبطة والبشر ، ولكن ابتهاجه لم يطل ، فما أسرع مادعوت ثلاثاً من جوارىّ فأمرتهن أن يأخذنه فيفعلن به الأفاعيل . ثم يرددنه إلىّ وقد صار أهلاً لمسامرتى. ولورأيته بين أيدى هؤلاء الفتيات لرأيت عجبا ، ولو سمعته يتحدث إليهن لسمعت عجباً ؛ ولكن لن أقص عليك شيئاً من ذلك وإنما أدع له إنباءك به ، فإن له فى هذا فناً لايخلو من فكاهة ترضيك ، وأنت ستراه من غير شك وستراه عندى ، فما أظنك تكره زيارتى ، وما أصدق أن المتنبى يشغلك عنى . وهب المتنبى قادراً على أن يصرفك عن شهر زاد فإن صاحبك فى حاجة إليك . فأمره أشد مما تظن خطراً . بل هو أشد خطراً مما كنت أقدر ومما كنت أريد .

« لقد كنت ألتمس سميراً فدللتنى عليه ، ولكن قصرى لم يكد يحتويه حتى كثر الماكرون به والكائدون له والمتألبون عليه، هؤلاء أشخاصه الذين خلقهم خلقاً فى هذه القصة التى نسجها حول شهر زاد ، والذين بعد عهدهم بى وانقطعت أخبارهم عنى حتى أنسيتهم أو كدت أنساهم ، وحتى نسونى أو كادوا ينسوننى ، قد عرفوا مكانه من القصر وخضوعه لسلطانى ، ولست أدرى كيف عرفوا ذلك . فأقبلوا جميعاً، ولست أدرى من أين أقبلوا وكلهم يريد أن يخاصمه وكلهم يريد أن يقتص منه لأنه صورهم على غير ما يحبون وأنطقهم بما لايرضون، وأجرى على أيديهم من الأعمال وأدار فى رؤوسهم من الخواطر ما لم يخطر لأحد منهم

ببال . وما ظنك بشهريار الذى فارقنى منذ أحقاب وأحقاب ، وقد عاد إلىّ اليوم يحاورنى ويجادلنى فى هذا الرجل الذى صوره كما تعرف وجعله كما يقول مثلاً للغباء الذى يزعم الذكاء ، والغفلة التى تدعى الفطنة ، والضعف الذى يتكلف القوة ، ومثلا لأكثر من ذلك ، وهو يلومنى ويغرينى ويحرضنى ، ويسألنى كيف أعفو عن هذا الذى اتهمنى فيما لاترضى امرأة حقيرة أن تتهم فيه ، فكيف بملكة كريمة مثلى متسلطة على القلوب خالدة على الأزمان . وقمر يقسم ما أضمر لمليكه غدراً ولا أدار فى خلده شيئاً يستحى أن يظهره .

« والعبد — وويل لصاحبك من العبد — إنه ثائر فائر ، إنه مرغ مزبد ، إنه مبرق مرعد ، إنه يريد أن يمزق صاحبك بأنيابه وأظافره ، إنه لا يطيق التفكير فى العفو على هذا الرجل الذى جعله صورة بشعة لأبشع ما يتسلط عن العقول والأبدان . وهو يغرينى ويحرضنى ويريد أن يضرم النار فى قلبى اولا أن قلبى أهدأ من أن تضطرم فيه النار . وهو يسألنى كيف أترك الحياة لرجل صورنى فى هذه الضعة وجعلنى أهبط من أعلى عليين لأكلف بهذا المخلوق البشع الدنىء ، والساحر يقسم ما سحر ، والجلاد يقسم ما باع السيف لينفق ليلة هنيئة ، وأبو ميسور يقسم ما أظلت حانته إثماً قط ، حتى زاهدة تقسم ما عرفت سراً ولاسئلت عنه ولا باحت به ولا اتخذت وسيلة إلى معرفته . وكل هؤلاء مغيظ محنق يلح على فى أن أنتقم له وأنتقم من صديقك البائس المسكين ، ومع أنى كنت ضيقة به ساخطة عليه حين قرأت كتابه ، فقد أدركتنى

الرحمة له والرفق به حين رأيت هذه الأشباح كلها تريد أن تشرب دمه وتأكل لحمه وتعرق عظمه عرقاً ، أسرع إلى زيارتى ياسيدى فلعلك تعينني على حماية هذا الصديق المسكين .

« على أننى لا أريد أن يظن بى صاحبك أنى خطفتك كما خطفته ، فأنت أحب إلى وأوثق عندى من أن تخطف ، ولكنى أريد أن تنبئنى باستعدادك لزيارتى ، فاكتب إلىّ إن كنت فى هذه الزيارة راغباً ولا تكلف نفسك محاولة إرسال الكتاب إلى . ولكن إذا أتممت إملاءه فليضعه صاحبك على المائدة فهذا يكفى . وأنا مظهرة أسيرى البائس على كتابك ليعلم أن الناس جميعاً لايخطفون ، وأن منهم من يزورون شهر زاد عن شوق إليها ورغبة فى زيارتها ، وأن المتنبى مهما يشغلك فلن يصرفك عنى . وإلى أن يصل إلىّ كتابك أرجو أن تتقبل يا سيدى تحية التى تنتظرك مشوقة إليك »

شهر زاد



إلى شهرزاد

ولست أدرى كيف أصف لك أيها القارئ العزيز ما أحدث هذا الكتاب فى نفسى من الأثر ، فأنا صادق إن أنبأتك بأنه ملأ قلبى بهجة وسروراً ، وأنا صادق إن أنبأتك بأنه ملأ قلبى جزعا وفزعاً ، وأنا صادق كذلك إن أنبأتك بأنه أثار فى نفسى حزناً يسيراً . فأما البهجة والسرور فلأنى كنت أتحرق شوقاً إلى لقاء شهر زاد . . وأما الجزع والفزع فلأنى كنت أرتعد إشفاقاً على توفيق الحكيم أن تتقسمه هذه الأشباح فيذهب شهريار برأسه ، ويذهب كل واحد منها بشلو من أشلائه . وأنا الذى دل عليه شهر زاد فعرضه لهذا الخطر المنكر ، وللرجل أهله وأصدقاؤه فى مصر قد فارقهم منهوكا ضعيفاً ليعود إليهم قويًّا أيداً . وهو بعد هذا كله صديق لى حبيب إلىّ ، أوثر له العافية وأضن به على المكروه ، وأتمنى له حياة متصلة مملوءة بحركاته هذه المضطربة المتناقضة التى ترضى وتسخط وتسر وتسوء . وأما الحزن اليسير فلموجدة أحسستها حين رأيت صديقاً يكيد لصديقه وأديباً يتجنى على أديب . ولست أنكر أنى قد مكرت به شيئاً حين أغريت به شهر زاد ، ولكنى لم أرد به إلا خيراً لأنى أتحت له لقاء تلك التى جعلته رجلاً معروفا . فما كنت أقدر أنه سيمكر بى ويكيد لى على هذا النحو . أما صاحبى فلم يجد إلا غبطة وفرحاً لأنه سيرى شهر زاد وقصر شهر زاد . وكان يقول لى : هون عليك فما يتعرض صديقك لخطر ما ، ومتى رأيت الأشباح تتقسم

بينها أجسام الأحياء ؟ وهل تستطيع هذه الأشباح أن تثبت لكيد شهر زاد ومكرك أنت إذا اجتمعتما على حماية توفيق ؟ ومع ذلك فإنك تحفظ كثيراً من هذه الصيغ السريانية والكلدانية التى تتلوها فتطرد بها الأشباح من المكان الآهل بها ، وترد هذا المكان آمناً كله لاخوف على أهله ولا هم يحزنون .

وكان يقول لى لاتجد على توفيق ولا تسيء به الظن ، فقد ضاقت عليه الحيل وأخذت عليه الطرق فاتخذ الوقيعة فيك عند شهرزاد وسيلة إلى الإفلات من سجن شهرزاد . وأنت تعرف صاحبك واندفاعه ورجوعه بعد الاندفاع . ومن طبيعة الأدباء أن يمكر بعضهم ببعض ويكيد بعضهم لبعض ، والأمر منته بينكما إلى مودة لاتشوبها ضغينة ولا حفيظة. فخلص قلبك من الحزن والخوف ، وخل بينه وبين الفرح بلقاء شهرزاد، وامل على الكتاب الذى تنتظره منك .

ثم يبسط الصحف أمامه ويأخذ القلم ويعفينى من هذه الحركة التى ألفتها كلما هممت بالإملاء ، وهى التماس السجاير ، فيقدم إلى السيجارة ويشعلها ويقول ما تعود أن يقول « نعم» فأملى عليه :

« أدركنى كتابك ياسيدتى، وقد بلغ منى الجهد والإعياء أقصى ما يستطيعان أن يبلغا من رجل لم ينم الليل ولم ينم بالنهار . لو تعلمين كيف أنفقت الساعات واللحظات منذ ودعتك لما احتجت إلى أن تنبئينى بأنك لاتقبلين فىّ سعاية ولاتستجيبين فىّ لكيد . أتعرفين شيئاً أروع من الليل العريض يجثم على الفضاء العريض منيخاً بكلكله كما يقول

شاعرنا القديم . وقد أخذت السماء ترميه من أشعة النجوم بسهام ماضية تبلغه وتنفذ فيه ، ولكنها لاتنال منه شيئاً ولاتحدث فيه أثراً ، وإنما هو ثابت لاينتقل ومستقر لايزول. أما أنافقد عرفت روعة هذا الليل ورهبته أمس حين استقبلت المساء على غير موعد منك ، ولكنى مملوء القلب أملا . ألا يتقدم الليل حتى تأتيني رسلك فأنفق معك ساعات كتلك الساعات التى لن أنساها. ولم يكن صاحبي فيما أعلم أقل انتظاراً منى لهذه المفاجأة الحلوة ولا أقل حرصاً منى على هذه الدعوة الكريمة . إنه لم يتحدث إليك ولكنه رآك واستمع لك ، وهذا يكفيه ليملأ قلبه شوقاً إلى رؤيتك وكلفاً بحديثك، لقد استقبلنا الليل ياسيدتى و إن قلبينا ليضطربان بهذا الأمل ويخفقان بهذه الأمنية ، ولقد حاولنا أن نقرأ الصحف وننظر فى الكتب ، فجعل صاحبي يقرأ ما لا يرى وجعلت لا أسمع لما كان يقول ، تركته تائهاً فى صحفه وكتبه وتركنى ذاهباً مع الأمل والخيال . كلانا يظهر لصاحبه أنه معنى به ملتفت إليه ، وكلانا يخفى على صاحبه أن عقله قد فارقه وأن لبه أسير هناك فى ذلك القصر الذى رأيناه وأقمنا فيه وتحدثنا إلى أهله وسمعنا منهم ، ولكننا لانعرف إليه طريقاً ولانستطيع إليه سعياً . وانتصف الليل فإذا الأمل كاذب ، وإذا الرجاء خائب ، وإذا الحسرة لاذعة ، وإذا هى تبدى نفسها ، وإذا كل منا يرى صاحبه كما هو ، وإذا نحن نفترق لا لنأوى إلى المضاجع ، ولكن لنسأل عنك ظلام الليل ونجوم السماء وهذا النسيم المضطرب فى الجو .

« نعم ياسيدتى لقد تركت صاحبي لا لأستريح ولكن لأخلو إلى خيالك وإلى ذكرك حين أعيتنى الخلوة إلى شخصك . فأنفقت ما بقى من الليل جالساً فى شرفة تخرج عن غرفتى شيئاً أستقبل الليل وآنس إلى صمته الرهيب وأستمتع بهذه الموسيقى الخافتة التى تبعثها فيه أحياء الغابة والحقول . أو أذعر من حين إلى حين لهذه الدقات التى تضطرب فى الجو تحسب المسكينة أنها تقيد الليل وتقسمه أجزاء وتنبيء بمامضى منه وتتنبأ بما بقى ، وتتأذن بما بيننا وبين الفجر من آمال . وإنها لتفعل هذا كله بالقياس إلى الذين أقفرت قلوبهم من الحب وبرئت نفوسهم من الشوق ، فأما الذين رأوا شهر زاد ثم نأوا عنها فليلهم متصل لاينقضى ونهارهم متصل لاينقضى أيضاً ، لأن ليلهم ونهارهم عليهم سواء ، كلاهما مظلم ، وكلاهما جامد ، وكلاهما طويل ثقيل ، كأن هؤلاء المحبين لا يعرفون الشمس إلا حين يشرق لهم وجه شهرزاد ولا يعرفون الأمن والهدوء والدعة والنعيم إلا حين يغمرهم جمال شهر زاد .

« لقد صدق توفيق الحكيم ياسيدتى فأنا فى هذه الأيام مشغول بالمتنبي ولكنى مشغول به عن كل شيء وعن كل إنسان إلا أنت . فإن أمنيته الملحة عليه المضنية له المنغصة لليله ونهاره ؛ تشبه أمنيتى الملحة على المضنية ، لى المنغصة لليلى ونهارى ، ولكنى لا أتمنى كما كان يتمنى ملكاً وسلطانا ، ولا أشتهى كما كان يشتهى ثروة وغنى ، وإنما أتمنى لقاءك والاستمتاع بجوارك القريب ، وأى ملك يشبه الخضوع لك أو يعدل الإذعان لأمرك ، وأى ثروة تشبه الشعور بأنى قريب منك ليس

بيني وبين الغنى الذى يمتع القلب والعقل إلا أن أتجه إليك فأسمع منك أو أحس قربك منى ؟

« رحم الله المتنبي ياسيدتى فقد أعانني على احتمال الشوق ويسر على بعض الشيء ثقل الليل لأنه ترجم عما كنت أجد فى هذه الأبيات التى تغنى بها ذات ليلة فى أنطاكية وتغنت نفسى بها الليلة البارحة فى سالنش ، ولولا بقية من عقل تأبين أن تستأثرى به كله رحمة بمحبيك ، لأطاع لسانى نفسى ولاندفعت مغنياً هذه الأبيات يشق صوتى بها سكون الليل ويوقظ بها الهادئين الهاجعين من حولى .

« أتذكرين هذه الأبيات ياسيدتى ؟ وهل تنسين شيئاً ؟ وهل ينبغى لك أن تنسى شيئا ؟ استمعى لها فإنها لاتصور المتنبي وحده وإنما تصور كل محزون كئيب قد حيل بينه وبين ما يتمنى وأكره مع ذلك على أن يحيا فيسهر الليل ويضطرب فى النهار !

أعزمى طال هـذا الليل فـانظـر

أمنك الصبح يفـرق أن يـؤوبـا

كـأن الفجـر حـب مسـتزار

يـراعى من دجنتـه رقيبـا

كـأن نجـومه حـلى عليـه

وقـد حـذيت قوائمه الجبـوبا[1]

---

(١) الجبوب : الأرض . وحذيت : قطعت ، فكأنه أراد قد قطعت له من الأرض قوائم فليس يبرح .

كأن الجو قاسى ما أقاسى
فصار سواده فيه شحوبا

كأن دجاه يجذبها سهادى
فليس تغيب إلا أن يغيبا

أقلب فيه أجفانى كأنى
أعد به على الدهر الذنوبا

وما ليل بأطول من نهار
يظل بلحظ حسادى مشوبا

« بهذه الأبيات تغنى ضميرى بقية الليل ولكنه كان يضع الشوق موضع العزم؛ فإن فراقك لم يبق لى عزماً ولا حزماً . ثم أشار الفجر بأصبعه الوردية التى أريتها أنت يا سيدتى لضرير اليونان منذ ثلاثين قرناً ؛ فإذا الليل الجاثم ينهزم ، وإذا الشمس تقبل فتبسط الضوء والحياة على كل شىء وفى كل نفسى ، ولكنى أظل محروماً ضوء الشمس وحياتها لأنك أنت الشمس والحياة . وأنا أحمل الطير المستيقظة التى تغدو من وكناتها فرحة مرحة يسكرها نسيم الصبح وبرد الندى وضوء الشمس رسائلى إليك لعل بعضها أن يمر بقصرك المسحور فيرسل من فيه نغمة تحمل إليك بعض ما أجد من لوعة ، وما أقاسى من ألم . وأنا أهيم مع صاحبى وجه النهار فى الجبال والربى أسأل عن أخبارك طير الغاب وما يعبث بأغصان الشجر من نسيم ، وأسأل عن أخبارك هذه الغدران الضئيلة الصافية التى تنحدر من الجبال متعطفة متلوية تناجى الصخور وتناغى الحصى لعل فى مناجاتها ومناغاتها شيئاً من حديثك يرد إلى بعض ما فقدت من أمن وهدوء .



« ولم تحمل إلى الطير نبأ ولم يبلغنى النسيم خبراً ولم ترد إلىّ مناجاة الغدران ومناغاتها أمناً ولا هدوءاً فأعود قانطاً مستيئساً ، ولكنى أجد كتابك ، فتبينى الآن أمشغول أنا عنك بالمتنبي ؟ أكنت زاهداً فى جوارك حين ودعتك ، أكنت راغباً عنك حين عدت إلى هذا الفندق الذى أضيق به الآن أشد الضيق .

« لبيك يا سيدتى، لبيك دعوة كريمة وطاعة سريعة لا تنتظر إلا أن تأمرى بأن أشخص إليك. لست مشغولاً عنك بشيء ولا بأحد ولست فارغاً لأتحدث عن كيد توفيق لى عندك فليس يعنينى إلا أن أبلغ رضاك عنى وأضمن ثقتك بى ؛ ومع ذلك الله يعلم ما أردت بالصديق الأديب شرًّا ومتى كان القرب منك شرًّا . إنما آثرته على نفسى حين دللتك عليه وأنبأتك به . وآثرتك أنت على نفسى ياسيدتى لأن توفيقاً كان يسلينى ويلهينى ويفتح لى أبواباً من الرضى والبهجة ، ويعرض على فنوناً من العبث والضحك ما كنت لأفرط فيها لولا أنى أحسست حاجتك إليه .

« لا تيأسى منه يا سيدتى فتجدين عنده ما تريدين ، آمنيه وهدئى روعه ، ثم دعيه يرسل نفسه على سجيتها واستمعى لحديثه وأجيبيه جادة حيناً وهازلة حيناً وانتظرى نتيجة ذلك فسترضين . لقد طلب إليك أن تصحبيه إلى الغدير لتصيدى السمك معه ، فاصحبيه يا سيدتى وأظهرى أنك تريدين الصيد، فستضحكين كثيراً قبل أن تبلغى الغدير حين ترينه فارساً مغواراً وبطلا كميًّا قد ملأه الفخر والإعجاب والتيه

بما يحمل من أداة الصيد، وستضحكين كما ضحكنا حين يبلغ الغدير ويلقى أداة صيده فى الماء ثم يحس حركتها ثم يحس ثقلها ثم يستيقن ياسيدتى أنه قد ظفر بكنز من هذه الكنوز، التى سحرت بها عقل شهريار، ثم يخرج أداة صيده من الماء إلا أنه قد فقد السنارة .

« ستضحكين يا سيدتى حين ترينه يعاود هذا الجهاد مرة ومرة ، ثم يرجع معك وقد صفرت يده من الصيد واضطربت نفسه بين الرضى بما جاهد والسخط على ما أخفق ، فهو يرثى لنفسه وهو يضحك من نفسه ، وهو يحملك على أن ترثى له وتضحكى منه . نعم وستغرقين فى الضحك حين ترينه يصطاد نفسه بعد أن عجز عن صيد السمك . نعم يصطاد نفسه ياسيدتى ، لاتنكرى ولا تدهشى ، فقد اصطاد توفيق نفسه ذات يوم؛ اختلط فى خيطه وارتبك ولم يعرف لنفسه مذهباً فاستغاث : « انجدونى فقد اصطدت نفسى » وأقبل أصحابنا عليه فلم يخلصوه من سنارته إلا بعد جهد، ثم خافوا عليه أن يصطاد نفسه مرة أخرى فجردوه من سلاحه الخطر ولفوه فى بعض الورق ، وقالوا له احتفظ به ولاتخرجه إلا عند الغدير ، ولكنه أضاع سلاحه ياسيدتى ، وعاد أعزل إلا من هذه العصى التى لاتنفع ولا تضر .

« وأنا قاس حتماً أتندر بهذا الصديق البائس وقد أحاط به ما وصفت من خطر وتألبت عليه هذه الأشباح العاتية تريد أن تمحقه محقاً وتسحقه سحقاً . كلا كلا لن ترضى نفسك عن هذا ياسيدتى ، ولن تسمحى به ، ولن تأذنى فيه . . . من يسليك إذن ومن يسلينى ومن يسلى قراء العربية من

المصريين والشرقيين ، وقراء الفرنسية والروسية أيضاً فقد ترجم إلى الفرنسية والروسية كما تعلمين .

« كلا كلا ، ستحمينه وستقومين دونه ياسيدتى إبقاء على شخصه ورحمة لأهله وأصدقائه ومحبيه ثم حفاظاً للأدب وذوداً عن حرية الرأى ، يا للشر يا للخطر ، ياللبلاء حتى أرواح الموتى قد مسها عدوى الطغيان فهى تمقت حرية الرأى وتعاقب العقل حين يفكر والقلب حين يشعر ، والخيال حين يبتكر . ألم يكف حرية الرأى ما تلقاه من عنت الطغاة بين الأحياء حتى تصبح أرواح الموتى عدواً لهذه الحرية وظهيراً لخصومها وأعدائها ، لن ترضى نفسك الأبية عن هذا الذل ياسيدتى ، إن الذين يعتدون على حرية الرأى من الأحياء والأموات إنما يعتدون عليك أنت لأنك مصدر الرأى والشعور والخيال ، وإن الذين يستعدونك على توفيق ويغرونك به لا يستعدونك إلا على نفسك ولا يغرونك إلا بنفسك ، فاحذرى يا سيدتى أن تسمعى لهم .

« لبيك لبيك ، مرينى أكن عندما تحبين . . . »

ولم أكد أتم الكتاب وأترك صاحبى يضم عليه الغلاف حتى أحسست حركة خفيفة ، وإذا صاحبى ينهض مذعوراً لأن الكتاب قد اختطف من يده اختطافاً .

في الحمّام

مشى الأسير بين الفتيات الثلاث إلى الحمام مطأطئ الرأس ، يخفى عنهن وجهه بعطفه وهو يردد فى نفسه قانطاً :

— أهكذا قضى الأمر ! ولم يغن عنى شيئاً ذلك الحوار الذى دار بينى وبين شهرزاد ؟ وبعد ! أأترك نفسى حقاً لهاته الفتيات يفعلن بى الأفاعيل ؟ أرى والله أن لم يبق لى غير الهرب .

وسار فى سكون ينتهز نهزة صالحة. وأرادت الجوارى أن يجاذبنه الكلام فلم يتلقين جواباً . فقالت إحداهن :

— عجبا . . . إنه كالنائم .

وقالت الثانية :

— إنه شارد اللب كالذاهب إلى المشنقة !

فأجابت الأخيرة :

— ربما أفاق ونطق إذا غطسناه فى الماء البارد .

فاصطكت أسنان الأسير وسرت فى بدنه رعدة ، غير أنه لزم الصمت . وواصل الجميع السير فى دهاليز ممدودة ، بعضها مضيء وبعضها مظلم ، حتى بلغوا منعطفاً ضيقاً فوقفت الأولى وقالت :

— أرى أن تذهب إحدانا فتحضر الصابون وأن تذهب أخرى فتحضر المواسى وأن أقود أنا السجين. ثم نتقابل جميعاً عند الحمام ؟

فرفعت الثانية عقيرتها مغيظة :

— عجباً لهذه القسمة الضيزى ! تختارين لنفسك الانفراد به ،

ونذهب نحن للتافه من الأمر ! كلا . هذا لن يكون ، أنا أقود الأسير وأنت تذهبين للصابون !

فصاحت بهما الثالثة :

ـ لا أنت ولا هى . . . بل أنا . . .

ـ أنت ! هيهات ! تعال أيها السجين !

ـ دعيه ! تعال معى أنا أيها الأسير !

ـ أيها السجين ، قف إلى جانبى أنا .

وتناولنه فى أيديهن كالكرة يتنازعنه ، وقد ساءت حاله معهن وبح صوته من الصياح :

ـ حسبكن . . . حسبكن ! قد مزقتن المعطف بهذا الشد والجذب اتفقن أولاً فيما بينكن !

ـ نتفق ! هيهات ، هيهات أن نتفق بغير هذا !

خلعت صاحبة الكلام نعلها وخلعت الأخريان نعليهما . واشتبك الثلاث فى معركة حامية الوطيس والأسير بينهن يصيح :

ـ مهلا ، رفقاً ! إن النعال لاتصيب إلا قفاى ! اتركننى ناحية ريثما تصفين ما بينكن من حساب !

فدفعنه بعيداً عنهن . فنهض ونفض الغبار عن ثيابه والتفت فى الحال يميناً ويساراً فألفى بقربه دهليزا مقفراً مظلماً فانسل فيه هارباً وهو يقول غير مصدق :

ـ تلك هى للفرصة الذهبية التى لن يجود بمثلها الزمان !

فى ذلك الوقت كان طه حسين جالساً إلى صاحبه « فريد » تحت شجرة الزيزفون يصغى إلى ما يقرؤه عليه من شعر « المتنبى » ، وهو فى حقيقة الأمر لا يصغى إلى شىء ولا يستمع إلا إلى « شهرزاد » الماثلة فى أعماق نفسه تهمس إليه بصوتها العذب الرقيق كأنه صوت أجنحة فراش جميل الألوان ، أو حفيف غصن محمل بأزهار الربيع ، ذلك الصوت الذى كلما سمعه فتن به افتتانا. إنه يملأ أذنية الآن. بل إنه يرقص حوله كما ترقص عرائس الجن فى المروج. هو شىء غير منظور ، لكنه يحس له كياناً حيًّا وجسماً نابضاً لا ككل الأجسام! إنه يدعوه فى إشارة خفية ويجرى أمامه إلى جهة قصية . هنا لم يملك الدكتور نفسه فنهض مستوياً على قدميه . فوقف صاحبه عن القراءة مستغرباً :

— ماذا جرى ؟

— هلم بنا إليها .

— إلى من ؟

— إلى الفاتنة ربة القصر المسحور .

ففكر « فريد » ثم قال فى تردد :

— ولكننا لم نتلق بعد منها دعوة إلى المثول بين يديها !

— لا حاجة بنا إلى دعوة ولا أحسبها تكره لقائى فى أى وقت .

— ولكننا . . نجهل مسالك هذا القصر وهو كثير الدهاليز ، والوقت ليل ولم نعتد دخوله بغير رسول منها أو دليل .

— قلت لك هلم ولا تزد .

— إنها المخاطرة .

فضغط « طه » على يد صاحبه ضغطاً قوياً كاد يؤلمه وصاح به :

— إنى قد عزمت ، وأنا رجل — كما تعرف — صلب الرأى عنيد . ولا شىء يثنينى عن اقتحام المخاطر وارتياد المجاهل .

— هذه الصلابة قد عرضتك أحياناً إلى ماتكره .

— حقيقة . ولكنى . هكذا خلقت ولا قبل لى بتغيير طبعى وسجيتى . . . . هلم . . .

* * *

وفى حلك الظلام سار الاثنان مجدين حتى بلغا أسوار القصر المسحور . فتمهلا وجعلا يتلمسان فى الأسوار باباً أو مدخلاً فلم يجدا من ذلك شيئاً . وأعياهما التعب فقعدا على الأرض وأسندا ظهريهما إلى السور وتساءلا فى يأس :

— كيف السبيل إلى داخل القصر ، وكيف دخلنا إذن أول مرة ؟! إنه لاباب له . حقًّا إنه لقصر مسحور !

ولم يدم يأس طه حسين طويلا وسرعان ما أسلم نفسه للقدر كعادته . فالتمس فى الظلام يد صاحبه الذى ألجمه الخوف ووحشة المكان وجهل المصير ، وهزه هزًّا خفيفاً وقال له :

— ناولنى « سيجارة » !

فثاب « فريد » لنفسه وأخرج من جيبه لفائف التبغ وقدم إلى الدكتور واحدة منها ثم أخرج علبة الكبريت وأراد أن يحك العود فى

السور ، وإذا يده قد غارت هى وعود الثقاب فى فجوة لا آخر لها فصاح لساعته :

ـ هنا ثغرة فى السور ؟

ـ أين ؟ أين ؟

وقام « طه » فى الحال نازعاً من فمه « السيجارة » :

ـ فلندخل من هذه الثغرة !

ولم ينتظر من صاحبه رأياً ولا جواباً. فأمسك بذراعه ودفعه أمامه إلى داخل الثغرة دفعاً . ثم مشيا قليلاً ثم كثيراً ، ثم أمعنا فى المشى دون أن يصلا إلى بصيص من نور ، فأوقدا عود ثقاب ، فإذا هما يتخبطان فى دهاليز طويلة مظلمة متشعبة متقاطعة كأنها شبكة منصوبة. عندئذ صاح « فريد » :

ـ حصل .

ـ ما هو الذى حصل؟

ـ قد وقعنا فيما نكره .

ـ كيف ؟

ـ إن لم يكن هذا جب ، فأغلب الظن أننا الساعة فى موضع لن نصل منه إلى شىء . آه ! وقعنا . من ذا الذى يستطيع أن يخرجنا من هذه الدهاليز التى يضل فيها الخاطر .

ـ وما الرأى ؟

تسألنى الآن يادكتور ؟ ! لم يبق من رأى إلا أن نختار لنا

طريقاً من هذه الطرق ونسير فيه إلى النهاية .

— كلا . . . . تلك ليست عادتى . . . اضرب بنا فى كل طريق .

— لدى فكرة . ابق أنت يا دكتور هاهنا : ولأذهبن أنا ركضاً فى كل جانب من جوانب المكان حتى إذا ظفرت بشىء عدت إليك .

— نعم الرأى ... اذهب وأنا فى انتظارك هاهنا .

ذهب « فريد » وابتعد . وبقى الدكتور وحده فى ذلك الموضع من الدهليز يفكر فى أمره تلك الليلة وفى هذا المأزق الذى أدخل نفسه فيه وقد كان فى الفندق آمناً مطمئناً ، لكنه يتبرم دائماً بالأمن والاطمئنان ويخلعهما عنه فى ضيق كما يخلع الرداء الثقيل فى يوم قيظ شديد. ما الذى حمله على ترك جلسته الهادئة تحت الشجرة ليقف هذه الوقفة فى الظلام يلتمس صوتاً أو حركة فلا يسمع إلا أنفاسه المضطربة . نعم ، لقد بدأ القلق والخوف يجدان إليه السبيل . ويخيل إليه أنه يسمع الآن همسات بعيدة . أهى حقيقة ؟ أم هو الوهم والخيال بدءا يلعبان على مسرح الرأس التعب ! ! ولكن الهمسات تقترب وتتخذ رنينا واضحاً يدوى بين جدران الدهاليز. بل إنه يسمع الساعة صوت أقدام تضرب الأرض ، إنها تدنو ، تدنو والأصوات تتضح. إنها أصوات نساء . نعم لم يبق ريب فى الأمر ، ولم يلبث طه حسين أن أحاطت به الفتيات الثلاث وهن يصحن :

— هاهو ذا ! قد وجدناه !

ثم هجمن عليه هجمة واحدة وقبضن عليه بقوة وشدة وجذبنه جذباً عنيفاً وهن يقلن فى شبه صوت واحد :

— أيها الهارب !

ذهل طه حسين فى أول الأمر ذهولاً عقل لسانه . فهذا الانقضاض عليه فجأة فى هذا الليل الساجى ليس هين الوقع على النفس . غير أنه ملك سريعاً ناصية أمره وقال دهشاً :

— هارب ؟ على النقيض . إنى جئت بنفسى وأقبلت شوقاً وحبًّا . . . .

فقالت الجوارى ساخرات :

— شوقاً وحبًّا ! يا له من مخادع !

وقالت الأولى وهى تقرصه قرصة مؤلمة .

— أيها الماكر ! انتهزت فرصة خلاف دب بيننا وفررت . .

— آه ! ذراعى ! لا معنى لهذا القرص الموجع أيتها السيدة المهذبة !

وقالت الثانية وهى تخزه بإبرة معها :

— لقد قلبنا الدهاليز رأسا على عقب حتى وجدناك !

— آه ! آه ! كل شىء إلا وخز الأبر !

وقالت الثالثة وهى تعض أذنه :

— لو عرفت المصير المخيف الذى كان معدًّا لنا إن كنت ذهبت ولم نعثر عليك !

ولم يطق الدكتور الألم فصاح وهو يضع يده على أذنه :

— كل هذا قد جاوز الحد ! ألا يمكن ياسيدتى أن نتكلم بالعقل وأن نتفاهم بالمنطق . . .

فدوت فى المكان ضحكة الجوارى الهازئات :

— المنطق ! سنريك الآن كيف يكون المنطق !

ثم حملنه على أكتافهن حملاً وسرن به سيراً سريعاً يشبه الجرى وإحداهن تقول :

— لقد أضعت الوقت ومولاتنا فى الانتظار . ولانرى إلا حملك والركض بك ! أليس يعجبك هذا المنطق ؟ !

وأراد الدكتور أن يتكلم وأن يستعلم وأن يستخبر فلم يسمحن له بالكلام . ولم يصر هو كل الإصرار خشية عودتهن إلى القرص والوخز والعض . وهو الآن على كل حال بخير فوق أكتافهن . وبلغت الفتيات أخيراً مكاناً رحباً مضيئاً ، فى صدره باب جميل النقوش كأبواب قصر من قصور ألف ليلة وليلة . فقالت الأولى :

ها هو ذا الحمام . . . فلندخل به!

ولم ينتظرن . ولم يستمعن إلى اعتراض الدكتور . فدخلن وتهامسن وتغامزن ورفعنه قليلا ثم ألقين به دفعة واحدة فى حوض كبير مملوء بالماء البارد وهن يضحكن ضحكاً عالياً .

غاص طه حسين فى الماء ثم طفا وظهر وهو يشهق ويسعل وينتفض وقطرات الماء تتساقط من شعره ووجهه وثيابه والجوارى مستغرقات فى

ضحك مرتفع . وإحداهن تشير إليه وتقول لصاحبتيها :

ـ انظرا ! إنه ينتفض كأنه عصفور بلله القطر . . . .

فأجابت الثانية على الفور :

ـ أى قطر . إنه كعصفور غمره البحر ؟ !

ونظرت إليه الثالثة وقالت ضاحكة :

ـ انصتا ! إنه يريد أن يتكلم .

والتفت طه حسين حقًّا إليهن وأراد أن يقول شيئاً ولكنه ارتعد وعطس طويلا ، إلى أن هدأ أمره وخف عبء بلائه واستطاع الكلام . فقال لهن :

ـ أهى . . . مولاتكن التى أمرتكن أن تفعلن بى هذه الأفاعيل ؟!

فقلن جميعهن فى صوت واحد :

ـ نعم . .

ـ « شهر زاد » تأمر بهذا ؟ !

فقالت الأولى :

ـ إنها أمرتنا بأكثر من هذا . إننا لم نصنع بك شيئاً بعد ؟

ـ أولا يكفى ما صنعتن بى ؟

قالها طه حسين مرتاعاً على نحو أضحك الفتيات ، فتساند بعضهن إلى بعض . وقالت إحداهن له :

ـ سترى ما نصنع . أين المواسى ؟

فصاح الدكتور من قلب الحوض صيحة مدوية :

ــ مواسى ؟ أؤمرتن بذبحى؟!

فقالت الجوارى :

ــ كلا ، لا تخف ، لقد أمرنا فقط بإصلاح شأنك .

ــ إصلاح شأنى ! إذا كان ما حدث حتى الآن مقدمة لإصلاح الشأن فلا شك أن ما هو آت أدهى وأمر !

فقالت إحداهن :

ــ كلا . اطمئن إنا لن نصنع بك إلا خيراً . سنحلق لك لحيتك وشاربك ونجعل منك فتى رشيقاً أمرد خليقاً بمجالسة الملكات ومسامرة شهر زاد !

لم يكد الدكتور يسمع كلمة « المسامرة » حتى لمع فى رأسه خاطر وتذكر رسالة شهرزاد إليه ورده عليها فقال للفور :

ــ أيتها الجوارى إن فى الأمر خطأ . لست أنا المقصود بكل هذا اللطف والعطف !

فقالت الفتيات فى تهكم ظاهر :

ــ ومن غيرك ؟

ــ أخرجنى من هذا الحوض ! فقد تبين لى الأمر .

ــ ما هذا الهذيان ؟ ! أنخرجك قبل أن نغير هيئتك ونجمل سحنتك ؟

ــ ذاك توفيق الحكيم الذى أمرتن به . . أما أنا . .

ـ إننا لانعرف أسماء . ولم نتسلم أسماء ، إنما قد أعطينا شخصاً ، نهيئه ونقلبه خير منقلب ثم نرده لمن دفعه إلينا .

ـ وأين توفيق الحكيم ؟

ـ من هذا ؟ إنا لم نسمع قط بهذا الاسم ، ولم نر الليلة غيرك .

فحنق طه حسين وملأه حقد ويأس وغيظ فانفجر :

ـ أكاد أفقد صوابى ! أين توفيق الحكيم ؟ أيها الناس ، دلونى فقط على هذا اللعين وأنا أتكفل بالباقى !

وعندئذ قالت إحدى الجوارى :

ـ كفى إضاعة وقت ! إن الملكة فى الانتظار . أين المواسى ؟

فصاح طه حسين :

ـ انتظرن أيتها الفتيات ، إن فى الأمر خطأ ، وما أنا المقصود، اذهبن بى إلى شهرزاد وهى تحكم فى الأمر .

فقالت الأولى :

ـ ما بالك تخلط الآن فى الكلام . أين المنطق الذى كنت تتحدث عنه ؟

وقالت الثانية :

ـ إن حكم شهرزاد فيك قد سبق . وأمرها صريح لا إبهام فيه .

وأردفت الثالثة وقد رفعت فى يدها الموسى :

ـ هاهو ذا الموسى ! تقدم ! ولا أمل لك بعد الآن فى الإفلات

ولافائدة من المطل . فإنا لن ندعك حتى ننفذ فيك أمر الملكة ونعيدك إليها حسن المظهر جميل المنظر !

فأسقط فى يد طه حسين ولم يجد لنفسه مخرجاً فطأطأ الرأس هامساً :

– إنا لله وإنا إليه راجعون !



ثورة الأشباح

استلقت « شهر زاد » على فراشها وغاصت بين دمقس وسائدها . وغاص عقلها فى بحار التأملات . لقد كان يدهشها أمر الأسير الذى اختطفته ليبقى إلى جانبها يؤنس وحدتها فلم تظفر منه بغير الإعراض والرغبة فى الإفلات ! أترى فقدت « شهر زاد » سلطانها على الرجال ! هى التى من بين نساء الوجود قد فازت وحدها بإخضاع ذلك الجبار « شهريار » ! تعجز اليوم ويعجز جمالها وذكاؤها عن اجتذاب مخلوق ساذج مسكين كهذا السجين ذى المعطف الأسود وعصا السمك ! أتراها قد هرمت وهى التى لا عمر لها ولا ينبغى لها أن تهرم؟ أهو عجز وقصور منها حقًّا . أم هو حمق وتقصير من ذلك المخلوق الذى لم يستطع تقدير كنوزها ولآلئها ؟ ! لكن أيمكن أن تتهم بالحمق وقلة التقدير رجلاً كتب عنها كتاباً فجعلها فيه صنو « إيزيس » و « بيدبا » ! لكن ماباله إذ رآها الليلة وجهاً لوجه لم يلفظ كلمة تقدير ولم يلق إليها بكلام عميق ولم تسمع منه إلا هراء ينم عن استخفاف . أهى التى كانت تدعى إلى صيد السمك من الغدران ! أم هى التى كانت جديرة أن يدعوها إلى زيارة هياكل الفكر الإنسانى الخالدة على الزمان ! حقًّا إنها لا تفهم من أمره شيئاً . هى التى تفهم الرجال كامرأة عاشت ألف عام بين الرجال ! لاتستطيع أن تفهم هذا الرجل المعقد ! لكن لماذا لا تريد أن تعتقد أنها قد هرمت قليلا وأن شعرات قد ابيضت فى رأسها الأسود الجميل .

وإن المرأة إذا هرمت كان عليها أن تترضى الرجال وأن تسايرهم وأن تعنى بالتافه من رغباتهم. فإن استبقاء الرجال فن يجب أن تحذقه المرأة إذا علت بها السن . وضاعت امرأة اعتمدت على سحرها الماضى فجلست بلا حراك تنتظر أن يجثو عند قدميها الرجال ! إن لكل سن طرائقها ووسائلها . ولكل وقت أدوات صيده !

لقد صدق صديقها الحميم طه حسين إذ نصحها فى رسالته ألا تهمل رغبات توفيق التافهة وأن تتبعه حاملة مثله « السنارة » إلى الجداول يصيدان السمك الصغير وهى الملكة العظيمة ! وأن ترافقه إلى المقاهى الحقيرة إذا طلبها هناك دون أن ترى حرجاً فى ذلك أو تحقيراً من شأن مقامها الجليل ! إنها قد نسيت أن للرجال صغائر وحماقات لا يخلو منها رجال الفكر والعقل . فلتتبع توفيقاً فى أطواره ولتر منه ما يكون ! نعم هذا هو الرأى ولكن لماذا أبطأت به الجوارى ؟ وقد كاد الليل أن يولى . هنا نهضت شهرزاد واستوت فى فراشها وصفقت بيدها فجاء العبد فقالت :

— أين السجين ؟

— إنه فى أيدى الجوارى يا مولاتى !

— أما فرغن بعد من أمره ؟ فليسرعن به إلىّ !

— مولاتى !

— ما بك ؟ وما هذا التقطيب والغضب على وجهك ؟

— هذا السجين ، قد بلغنا من أمره كما تعلمين خبر عظيم .

فهو قد وصفنا فى كتاب له وصفاً قبيحاً ، وافترى علينا افتراء

أثيماً ! وكلنا هنا يطلب رأسه . وقد أقسم «الجلاد» أن يتولى الجزاء بنفسه ، وقد تلقى أمراً من الملك «شهريار» بذلك و «الوزير» والساحر ، وزاهدة ، وأبو ميسور » !

— ليس يعنيني من أمرهم شيء . . كل أولئك أشباح تعيش في الماضي وقد جاءت إذ سمعت بسجن توفيق الحكيم كي تثير قضية تتعلق بالماضي ، ولكنهم جميعاً غير قديرين على الحياة في الحاضر والكلام في الحاضر . لقد دخل على « شهريار » منذ لحظة ففرحت به كأني عثرت على كنز مفقود ، لكن وا أسفاه . سرعان ما تبين لي أنه لا يعرفني ولا يعرف عن حياتي اليوم شيئاً . فهو شبح وذكرى . وهو غير قدير أن يعيش خارج المائة والعشرين صفحة التي كتبها توفيق الحكيم ، لقد يئست منه بعد قليل ، وهو أيضا قد تركني دون أن يعرفني كأنه نائم أو مجنون .

— إنه يا مولاتي مع الوزير قمر والجلاد والساحر وأبي ميسور وزاهدة .

— نعم مع بقية الأشباح . إنهم يستطيعون أن يفهم بعضهم بعضا . . إياك أيها العبد أن تجلس إليهم .

— إني يا مولاتي أعيش معك اليوم في الحاضر . . ولكني أحيانا . . .

— كفى ! إني لا أطيق الكلام في الماضي طويلا . . إني أعظم من أن أحبس في عصر واحد . إني لكل العصور .

— مولاتى ؟

— ماذا تريد ؟

— إن لم نسلم إليهم ذلك السجين فإنهم لن يفارقونا .

— إنها لمحنة . وما الرأى ؟ !

— ماذا يهمنا من أمر هذا السجين ، فلنقذف به إليهم .

— لم يخب ظنى ، إن نصفك معهم ونصفك معى !

— إنما أردت يامولاتى أن أريحك من وجودهم !

— لن أقطع برأى حتى أستشير صديقاً لى . اذهب الآن عنى !

* * *

وسكتت شهر زاد قليلاً وأطرقت ملياً . وإذا الباب يضرب عليها ، فرفعت رأسها وأذنت فى الدخول ، ففتح الباب ودخلت الفتيات الثلاث يقدن طه حسين فى رداء جميل واسع الأعطاف لو لم يكن مزين الحواشى بالذهب والفضة واللآلىء النادرة لحسبته ذلك الرداء الجامعى الذى يرتديه العمداء فى الحفلات الرسمية الكبرى . وقد غدا الدكتور حليقاً وسيماً تطمع فى رضاه الجميلات . فتقدمت به إحدى الفتيات وقالت :

— هاهو ذا يا مولاتى قد هيأناه !

نظرت شهرزاد ، ثم أنعمت النظر ، ثم قالت كالمخاطبة لنفسها :

— مستحيل ماذا فعلتن أيتها الجوارى ؟

هنا رأى طه حسين أن من واجبه أن يلقى الضوء على هذا الموقف

الغامض وأن « يرد الأمر إلى نصابه » فقال :

ــ مولاتى ! إنى لست توفيق الحكيم .

ــ طبعا . .

ــ إنى . . .

ولم تطق شهرزاد صبراً فقالت فى حدة :

ــ أو تجرؤ يا هذا على الدخول على بهذا التمويه ؟!

ــ مولاتى عفواً . . إنى لست فى حاجة إلى التمويه . . كما تعلمين .

ــ وأين إذن توفيق الحكيم ، وما هذا الزى الذى عليك ؟

ــ سلى جواريك !

فالتفتت شهرزاد إلى الفتيات ونظرت إليهن نظرة المستفسر ؛ فقالت إحداهن فى لهجة بريئة صادقة :

ــ أليس هذا هو الذى تسلمناه من مولاتى ؟

ــ مطلقاً . أيتها الفتيات .

فالتفت طه حسين إلى الجوارى وقال فى انتصار :

ــ لقد بح صوتى من القول إن فى الأمر خطأ . ولكنهن مضين يصنعن بى مالا يصنع !

وعندئذ لم يسع الفتيات إلا أن يعترفن بما حدث من هرب توفيق الحكيم والعثور على هذا الذى حسبوه الهارب . ولم يسع طه حسين إلا أن يقص قصته وما وقع له بالتمام والكمال من وقت أن خرج من داره إلى أن مثل بين يدى شهرزاد فى هذه الهيئة والزى. وختم حديثه قائلا للملكة :

ـ أرأيت يا مولاى ! لقد صدق المثل العامى « من خرج من داره قل مقداره » .

ولكنى مع ذلك راض بما كتب لى مغتبط برؤيتك فى النهاية على كل حال !

فضحكت شهرزاد وقالت فى رقة :

ـ أيها الصديق العزيز ! إنى آسفة لما وقع لك . وآسفة أنى لم أبعث إليك رسولاً يحضرك إلى بدلاً من الكتابة إليك . ولكنك قد حصلت عندى آخر الأمر . وإنى الآن فى حاجة شديدة إليك .

ـ إنى خادمك ورهين أمرك .

ـ أولا أين هرب واختفى توفيق الحكيم هذا ؟ أريد رأيك فى ذلك ؟

ـ أرى يا سيدتى أن تطلقى رجالك فى أثره يبحثون عنه .

ـ أين ؟ !

ـ أرى أن يبحثوا عنه عند شواطئ البحار والأنهار والجداول والغدران كافة . فإن السمك وحده الآن هو الذى يعرف مقره .

ـ نعم الفكرة . هنا لك أمر آخر شديد الخطر أطلب رأيك فيه : أتذكر فى رسالتى أنى حدثتك عن أشباح أشخاص توفيق الحكيم؛ إنهم هنا الآن يلحون فى طلب رأسه . ولا أراهم يبرحون حتى يسلم إليهم . أأسلمه لهم أم أمنعه؟

ـ مولاتى! لا هذا ولا ذاك . .

ـ عجباً ! ماذا أصنع إذن ؟

ـ لا إعدام بغير محاكمة . ولا محاكمة بغير قضية . فاشترطي عليهم ألا تسلميه إلا أمام محكمة يدلون أمامها بما يتهمونه به وما يريدون من أجله رأسه .

ـ نعم الرأى . نعم الرأى . إن آراءك فى نضجها كآرائى فى سن الشباب الأول . لكأنى بك قد نقلتها عنى واستوحيتها منى .

ـ كل أفكارى وآرائى مستمدة من ضبوئك ياسيدتى !

ـ بقى أمر واحد : من هو القاضى الذى يحاكم صديقنا ؟

هنا يفكر طه حسين ملياً ويقلب فى ذهنه الأسماء ثم لايلبث أن يصيح صيحة الفرح والظفر :

ـ وجدته يا مولاتى وجدته . إنه القاضى الذى لا يرد حكمه . وهو بعد ليس بالمجهول من المتهم ، فقد ردد اسمه كثيراً فى كتبه وذكره على أوضاع شتى فى كتاباته .

ـ من هو ؟ من هذا القاضى ؟

ـ الزمن ! . .

محنة توفيق الحكيم

وقد غمرني في محضر شهرزاد من الجمال والسحر ومن الظرف والعطف ، ومن رشاقة الحركة وعذوبة الحديث ، ما أنساني صنيع هؤلاء الجواري الماكرات ، وكاد يردني إلى الأمن والهدوء وإلى الدعة واللذة ، لولا أن خاطراً ملحاً كان يتردد على من حين إلى حين فيذهلني بعض الشيء عما كنت أجد من نعيم ، وكأن شهرزاد قد أحست هذا فهي تدق في ظرف يداً بيد ، وإذا الفتاة التي أدخلتنا عليها ، في الزيارة الأولى قد أقبلت خفيفة ظريفة كعادتها ، فانحنت ثم استوت ، وإذا شهرزاد تسألها ما صنع صاحب الأستاذ . قالت الفتاة في صوت ساحر : هو هنا يامولاتي منذ ساعة ، قلق النفس مضطرب البال ، لايصدق ما أؤكد له من مكان الأستاذ بين يديك ، ولا يريد أن يطمئن حتى يراه .

قالت شهرزاد : فأدخليه .

ثم التفتت إلى الفتاة وانصرفت ، وقالت : أظنك تستطيع الآن أن تخلص لي ؟ وهممت أن أجيبها لولا أن عبدها الأسود أقبل مسرعاً فقطع علينا الحديث وهو يقول : أدركي أسيرك يا مولاتي فقد أشرف على الخطر ودنا من البوار . قالت شهرزاد في هدوء يملؤه الدل والتيه : وماذاك ؟ قال الأسود ؟ اجتمعت على سجنه الأشباح يا سيدتي ، ولولا أني وكلت بهذا السجين أشد من في القصر من أبناء أبي قوة

وأيداً ، وأصلبهم عوداً وأقدرهم على المقاومة وأصبرهم على الجهاد ، لاقتحم السجن عليه اقتحاماً ، ومع ذلك فالأشباح ملحة فى الهجوم تصطنع فيه فنوناً من العنف الصريح والمكر المغرى ، ولست آمن أن تظهر على الجند ، فإن كانت لك حاجة فى أسيرك فأسرعى إليه فلن يرد الأشباح عن سجنه إلا مرآك .

* * *

وكنت قد نسيت توفيق الحكيم وشغلت عنه بما لقيت من شدة أول الأمر ، وبما كنت أنعم فيه من لين ذلك الوقت ، فلما سمعت ذكره وعرفت تعرضه للخطر عادت إلىّ نفسى ، فسألت الأسود : وهل ظفرتم به ؟ وكيف وجدتموه ؟

قال الأسود ، وهو يقاوم الضحك مخافة أن يحفظ مولاته :

ـــ أخذناه ياسيدى وأنفذنا فيه قوانين القصر !

قالت شهرزاد :

ـــ أو كنت تظن أن ساذجته تغلب مكرى ؟ أو تحسب أن الخروج من هذا القصر ميسر لمن دخله ؟ وإذن فأى أمن لشهرزاد وأى سلطان بقى لها ، وأى سحر هذا الذى يحيط بالقصر إذا أتيح لرجل ساذج كتوفيق أن يفر من أهله وينفذ من أبوابه كما يريد ؟

قلت : فإنى لم أفر من أهله يا سيدتى ، ولكنى دخلت عليهم القصر ولم يشعروا بدخولى ، وانسبت فيه انسياب الحية ولم يعرفوا مكانى منه ..

قالت وهى تضحك :

ـــ فإن هذه قصة أخرى لعلها أشد تعقيداً مما تظن ، أواثق أنت بأن

رسلى ليسوا هم الذين أغروك بالخروج فى طلب القصر وداوك على طريقه وانتهوا بلك وبصاحبك إلى هذه الفجوة التى انسللتما منها ؟ ولكن فى الأمر تقصيراً من غير شك . .

ثم التفتت إلى الأسود قائلة :

ـ والفتيات ماذا صنعتم بهن ؟

قال : أنفذت فيهن قوانين القصر يا مولاتى . وهن الآن مشدودات من شعورهن إلى السقف فى غرفة العذاب تصب عليهن السياط صباً .

قلت مأخوذاً : أو تفعلون هذا بهؤلاء الجوارى الحسان ؟!

قلت شهرزاد : كأن قلبك قد رق لهن ، وكأنك نسيت أنهن أعرضن عما كان يجب من إنفاذ أمرى وفرغن للهوهن . . وما ينبغى لمن اتصل بشهرزاد أن يشغل عنها بنفسه . فكيف بهؤلاء الإماء اللاتى لا وجود لهن إلا مستمدا منى .

قلت مستعطفاً : رفقاً بهن يا سيدتى ، فقد كن ضعافاً وقد كن أغراراً ، ظنن وراء الأكمة شيئاً ، فلم يجدن إلا هواء وغروراً .

قالت شهرزاد : وإعراضا عنهن وفراراً منهن .

قلت : فإنى شافع فيهن .

قالت : سنرى فى أمرهن ، ولكن لنسرع إلى صديقنا الأسير فما ينبغى أن تستأثر به الأشباح الضارية .

ولابد من أن أعيد عليك قصة صديقنا الأسير من بدئها فإنك لم تعرف إلا آخرها : هو الآن محصور فى سجنه مغلوب على أمره ، تتراءى

له الأشباح موعدة منذرة ، ولكنها لا تبلغه لمكان هؤلاء الجنود السود، وهو كلما رآها اضطرب من رأسه إلى قدميه وجرت الرعشة فى بدنه كله، فأسنانه تصطك وفرائصه ترتعد وصوته يخرج من فمه هائلاً مبهماً لا يفهم منه إلا شيء واحد وهو أنه جزع يستنجد ويستغيث. فكيف انتهى إلى هذا السجن ؟ عرفنا ذلك من أمره فيما بعد ، فلا تسل عن ضحكنا منه ولا تسل عن ضحكه من نفسه . وما أظن إلا أن هذه القصة التى وقعت له فى دهليز من دهاليز القصر المسحور ستملأ ما بقى من حياته الطويلة إن شاء الله ضحكاً وفرقاً .

سيضحك منها إذا لقى الناس وأمن الاعتداء عليه، وسيفرق منها إذا خلا إلى نفسه وأشفق أن تنجم له الأشباح من الأرض أو تهبط عليه من السقف أو تنشق له عنها الجدران .

كان إذن يضرب فى دهاليز القصر وقد اتخذ معطفه وقاء من كل شر ، لا يخرج من دهليز إلا دفع إلى دهليز ، ولا يفصل عن بهو إلا ألقى إلى بهو ، حتى ضاقت به السبل ، وسدت عليه الطرق ، وكان قد منى نفسه بالإفلات وزين لها النجاة ، وكان قد أخذ ينعم بأول الانتصار ويرى أنه قد خلص من هؤلاء الفتيات الحسان وأمن عبثهن بجسمه وعقله معاً . ولكنه يمضى فى الأبهاء ويدور فى الدهاليز دون أن يجد مخرجاً إلى النور ؛ حتى طال عليه الوقت واشتد عليه الكرب وثقلت عليه المحنة ، وعظم فى نفسه البلاء . وإنه لفيما هو فيه من السعى الذى لا يكل والدوران الذى لا يجدى ، وإذا بصيص من نور ضئيل

يخلص إليه من بعيد، فيخيل إليه أنه قد وجد خيط اريان، ويرى نفسه غريقاً قد أتيحت له خشبة النجاة فهو يتعلق إلى هذه الخشبة بيديه ورجليه وأسنانه. وهو يتبع هذا النور الضئيل وقد عقد به أمله كله، ووصل به نفسه كلها. وهو يجمع ما بقى له من قوة ويجرى فى أثر هذا النور حتى ينتهى إلى فرجة ضيقة فى الجدار فيدخل نفسه فيها ويجاهد ويحتال حتى ينفذ إلى ما وراء الجدار. وإذا هو فى فضاء واسع يضطرب فيه نسيم بارد قوى يرد إليه بعض ما فقد من قوته. وكان خليقاً وقد خرج إلى الفضاء الطلق خائر العزم منهوك القوى أن يتهالك على الأرض ليستريح، ولكنه يمضى أمامه وقد أسلم ساقيه للريح وأقسم فى دخيلة نفسه ألا يطمئن ولا يستقر حتى يبعد عن هذا القصر البغيض، والفضاء أمامه واسع عريض قد اختلطت أرجاؤه وأطبقت عليه ظلمة كثيفة يخترقها بين حين وحين هذا النور الضئيل، فيتبعه صاحبنا جاداً فى ذلك كل الجد، ومايشك فى أن قدرة الله قد أرسلت إليه هذا الشعاع فرجاً من حرج، ومخلصاً من ضيق، ولكنه يقف فجأة فى شيء من الذهول والدهش كأنه قد أحس شيئاً من طريق السمع أو من طريق البصر. فإذا مضت عليه لحظات قصار زال عن نفسه الشك وفارقها الريب، فهو يحس شيئاً من طريق السمع والبصر معا. يرى بناء متواضعاً قد قام منه غير بعيد، أو يخيل إليه أن شخصاً ماثلا قريباً من هذا البناء، ويسمع صوتاً تحمله إليه الريح لا يفهمه أول الأمر ولايثبته، ولكنه يصغى إليه ثم يدنو منه فإذا هو يسمع ويثبت ويفهم ويعى،

وإذا هو دهش قد كاد يفقده الدهش رشده، وذاهل قد كاد يغلبه الذهول على ما بقى له من صواب ، إنه يسمع صوتاً عربيًّا يتغنى غناء عربيًّا ، فإذا أطال الإصغاء، خلص إليه من هذا الغناء شعر عربى فصيح ، هنالك ينكر الرجل نفسه، ويتّهم حسه ، ولا يكاد يشك فى أن أطيافا من هذه الأطياف التى تملأ الجو قد مكرت به واحتالت عليه ، حتّى أوقعته فى شر مما فر منه ، ذلك أنه فى فرنسا فى إقليم سفوا العليا ، فإذا أتيح له أن يسمع صوتاً يتغنى فى ظلمة الليل فأقصى ما يمكن أن يكون هذا الصوت فرنسيًّا يتغنى شعراً فرنسيًّا . ولكن ماذا ؟ إنه ليس مجنوناً ولا مختلط العقل ، فهو يسمع غناء ، وغناء عربيًّا فصيحاً يملؤ عليه الجو من حوله ويدعوه ، نعم يدعوه ويلح عليه فى الدعاء والإغراء . إنه يتبين الألفاظ التى يسمعها ، إنه يحفظها ، إنه يعيدها على نفسه ، إنها تقع من قلبه الجاف المحترق مواقع الماء من ذى الغلة الصادى . إنها ملأت قلبه ونفسه ، إنها ملكت عليه أمره ، إنها قد استهوته استهواء ، واستغوته استغواء ، إن هذا الغناء يصل إلى أبيات من الشعر لايكاد ينتهى إليه البيت منها حتّى يعيده كما سمعه كأنه صبى يعيد على معلمه ما يلقى عليه من الكلام :

أهلا وسهلا بخائف يمشى   مستوحش هارب من الوحش .

نعم أنا والله هذا القادم ، إنى لأمشى فى هذا الفضاء العريض مستوحشاً، وما هؤلاء الفتيات اللاتى هربت منهن إلا وحشاً من وحش الجن لا من وحش الإنس .

فر من القصر وهو يجهل ما دبر من حيلة ومن غش

نعم والله، لقد فررت من ذلك القصر البغيض وما أدرى ما ذا دبر لى كيد شهرزاد ومكر طه حسين .

أقبل فعندى لك الأمان وما يدنيك فورا من أرض سالنش

لبيك لبيك، هأنذا آمن من الخوف ، فاحملنى إلى سالنش ، إلى فندق مون جولى ، فقد بعدت عنه وقد اشتقت إليه ، إنى لمتعب ، إنى لمكدود ، ما أشد حاجتى إلى الراحة .

إن شئت نوماً فعندنا سرر وثيرة فرشها من القش

من القش ، أو من الحطب ، أو من الخشب ، أو من الحجر ، النوم ! النوم ! أريد أن أنام لأفلت من هذه الأحلام المروعة .

أو شئت شربا فإن بيرتنا تملأ رأس النديم بالوش

لقد نضب ريقى ويبس حلقى ، وجف لسانى حتى كأنه الحطب ، بيرة سالنش فى تلك القهوة الصغيرة ، قهوة الجبل الأبيض التى كنت أخلو فيها إلى نفسى وإلى القدح والقرطاس سبع ساعات كاملة .

أو شئت أكلا فإن جبنتنا لا يأتلى دودها من النغش

كاممبير ، ركفور ، روبلوشون ، جبنة مصر ، يجب أن أكون نائماً فما ينبغى أن يكون ما أسمع وما أحس إلا حلماً .

والحب عندى كما اشتهيت له بيض عظام قريبة الفقش

هنا يمتلىء فم صاحبنا بضحك عريض متهلل وتنطلق ساقاه فى الريح ، لقد أيقظه هذا البيت ونبهه ، لقد عرف هذا الصوت ،

إنه صديقه طه حسين قد أقبل يخلصه وينجيه ، إن هذا البيت يذكره بذلك السؤال الذى ألقاه ذات ليلة على المائدة حين قدم له لون من الطعام يسميه الفرنسيون بئر الحب ، وأراد أن يسأل أيدخل البيض فى تكوين هذا اللون . فقال : أفى الحب بيض . فضحكت الجماعة ، وأجابه صديقه طه حسين نعم فيه بيض يفقس عن فروج ، هو إذن طه قد طالت عليه غيبتى فأقبل يبحث عنى ويستنقذنى .

أصحابنا كلهم ذوو بله تأمن منهم مرارة القفش

إنه لطه حسين ما أشك فى ذلك ، إنه يطمئننى ويهدئ روعى ، وينبئنى بأنه لن يعبث بى ولن يتندر على كلما هفوت فى حركة أو حديث .

حياتنا لو علمت ناعمة لم يلقها قط عاهل الحبش

الحبش ! وما خطب النجاشى فى هذه القصة ؟ لقد علمت أنه كان فى لندن ، ثم ذهب منها إلى جنيف ، ثم عاد منها إلى لندن ، فمالى وللنجاشى ، ألا أزال مختلط العقل ، أنائم أنا كاليقظان ! أيقظان أنا كالنائم .

أقل ما فى أقلها سمك يسبح فى بركة من المش

سمك ! بركة ! مش ! فقد أتيح لى إذن كل ما أنا محتاج إليه . أستطيع أن أصيد وأستطيع أن أسبح وأستطيع أن أرتوى .

أقبل أعنا على الهموم فقد ضقنا ذراعا بالكنس والرش

كلا . كلا . لست يقظان بل أنا نائم ، لست نائماً بل أنا يقظان . لست عاقلاً بل أنا مجنون ، لست مجنوناً بل أنا عاقل . ماذا أسمع ؟

الكنس والرش ، إن طه حسين لايكنس ولا يرش ، ولكنه يقرأ المتنبي ويتحدث عن شهرزاد. أين أنا ! ماذا دهاني! ماذا أصابني! ثم تنحدر من عينيه دموع غلاظ ساخنة . ولكن يداً ضخمة عريضة ثقيلة تنقض على كتفه ، وصوتاً غليظاً أجش يقول له فى نبرات مرتعشة يرتعش لها الفضاء من حوله ويرتعد لها جسمه النحيف : هون عليك فما بك من بأس .

هنالك يصيح الأسير الهارب : من أنت ؟ ألست طه حسين ؟

فيجيب الصوت الغليظ الأجش : كلا يا سيدى ، ولكنى رئيس الشرطة فى القصر المسحور . علمت بفرارك ولم أرد أن آخذك أخذاً عنيفاً ، فمددت لك أسباب الأمل وزينت لك طريق الهرب حتى انتهيت إلى ما كان يجب أن تنتهى إليه من الإذعان لسلطان شهرزاد . والأمور كلها تجرى فى هذا القصر المسحور على نحو من هذه الدعابة الحرة التى تظهر قاسية بعض القسوة ولكنها لينة كل اللين . فلا تخف ولا تحزن واستقبل أمرك راضياً مطمئناً فما أرى إلا أنه سينتهى إلى ما تحب وترضى . قال ذلك وقاد الأسير إلى هذا البناء المتواضع ، حتى إذا تجاوز الباب نظر توفيق فإذا سرير عليه وسائد من القش قد هيىء له كأنما يدعوه ليستريح ، قال توفيق وقد اختنق صوته بالبكاء : ماذا تريدون أن تصنعوا بى؟

قال رئيس الشرطة : نريد أن نريحك شيئاً فقد أجهدك الهرب ، ونريد أن نطعمك فقد أضناك الجوع ، ونريد أن نسقيك فقد ألح عليك الظمأ ، ونريد أن نرضيك ونرفه عليك فنعود بك إلى غدير

لايفلت منك سمكه . ثم نريد بعد هذا كله أن نردك إلى مولاتنا شهرزاد لترى فيك رأيها ، وما أظن إلا أنها ستدفعك إلى فتيات أخريات ملاح أو قباح ، يصلحن من أمرك ثم يعدنك إليها خليقا أن تكون لها سميراً، فإن شهرزاد إن قضت شيئاً لم يرد قضاءها إلا الله .

سمع توفيق هذا كله فخر على سرير القش لايعى شيئاً ، أكان نائماً؟ أكان مغشياً عليه؟ ولكنه أفاق بعد لحظة فإذا هو فى مكان مظلم ينفذ إليه نور ضئيل شاحب تمنى بعد لحظة لو لم ينفذ إليه. فقد استطاع أن يتبين بفضل هذا النور وجوه ثلاث من الإماء السود كأقبح ما خلق الله وكأبشع ما عرف الناس، وقد انحنين عليه فى رفق أيسر من العنف وابتسام أجمل منه العبوس ، وهن يداعبنه بأصوات منكرة و يمسحن وجهه وعنقه بأيد خشنة تجرى فى جسمه قشعريرة فظيعة وهو يصيح بهن : من أنتن ! ما خطبكن ! ماذا تردن منى ! إليكن عنى، وكأن زجره لم يكن إلا إغراء فهن يقبلن عليه ويدنين منه ، ويبسمن له عن أنياب كأنها أظفار السباع ، ويمددن إليه شفاههن البشعة المنكرة يظهرن الرغبة فى تقبيله وهو يلتمس معطفه ليتقيهن به فلا يجده ، وهو يهم أن ينهض ليعدو هارباً فلا يستطيع لأنه يحس فى رجليه ثقل القيد، وإذا هو يتقيهن بالوسائد يحمى بها منهن وجهه ، ولكن أيديهن الخشنة تعمل فيما بقى لهن من جسمه عملا ثقيلا طويلا مؤذياً ، حتى إذا بلغ منه الجهد وأدركه الإعياء وكاد يعود إلى النوم أو الإغماء تفرقن عنه لحظة ثم أقبلن عليه وقد ثاب إليه شيء من رشد وقوة فأجلسنه مترفقات وقدمن إليه

طعامه وشرابه من جبن كاممبير وبيرة سالنش . فيسرع إلى ما قدم إليه من ذلك إسراع النهم الشره الذى أنهكه الجوع . وما يكاد يفرغ من طعامه وشرابه ويسترد حظاً من رشده وصوابه ويبدأ التفكير فى أمره كيف ابتدأ وإلام انتهى؟ حتى يرى رئيس الشرطة مقبلا عليه ومن ورائه غلام أسود نحيف، ولكنه حسن الطلعة يحمل أدوات الصيد كاملة . فإذا رأى توفيق أدوات الصيد عاد إليه نشاطه وجرت على وجهه المتعب الشاحب ابتسامة حلوة فيها سذاجة الطفل البرىء ، وهم أن ينهض ولكن القيد يثقل رجليه فيثوب إلى نفسه حزيناً مبتئساً ، ولكن صاحب الشرطة يدنو منه متلطفاً له فيحط عنه القيد ويخلى بينه وبين الحركة والنشاط .

ونهض الأسير سعيداً بهذه الحرية التى ردت إلى رجليه ، مغتبطاً بهذه النزهة التى تهيأ له عند غدير يصطاد فيه السمك ، معجباً بذكاء هذا الغلام الأسود النحيف الرشيق الذى لم ينس من أدوات الصيد ما تعود هو أن ينساه ، فاحتمل معه سلة رحبة كأنه ينتظر أن يصطاد سمكا كثيراً ، ولكن توفيقاً عندما حدق فى هذه السلة الرحبة عاد إليه الشك وابتسم فيما بينه وبين نفسه والتفت إلى رئيس الشرطة قائلا : « أجادون أنتم فى أمر هذا الصيد أم لا يزال عبثكم بى متصلا ؟ » قال صاحب الشرطة : « هلم ياسيدى ، سترى عندنا وتفهم ما لا تريد أن ترى ولا تفهم من أن حياة الناس مزاج من الجد والهزل لا تخلص لأحد الأمرين». قال توفيق وهو يتبع صاحب الشرطة والغلام يتبعه : ما رأيت كالليلة جداً وهزلاً ، وقسوة ولينا ، وعبثاً وفلسفة . ومضى صاحب الشرطة أمامه يتبعه توفيق والغلام

يتبعهما ، حتى إذا مشوا دقائق وقف صاحب الشرطة عند باب ، ثم أدار فى الباب مفتاحاً فانفتح له ، ثم دخل وقال لتوفيق اتبعنى ياسيدى . فلم يكد توفيق يخطو أمامه خطوات حتى ارتد مسرعاً وقد أشاح بوجهه وقد وضع يديه جميعاً على أنفه وفمه . قال صاحب الشرطة : اتبعنى ياسيدى. قال توفيق إلى أين ؟ قال صاحب الشرطة إلى الصيد! قال توفيق : أى صيد ؟ قل إلى الموت : ما هذه الريح الكريهة القاتلة ؟ قال صاحب الشرطة وهو يضحك ! إنها الريح التى تحبها وتتكلف بها ، ريح الجبن . لقد أكلت منه حتى عفته، فمالى وللجبن ، وأين يكون الجبن من الصيد ؟ قال صاحب الشرطة وهو يلح فى رفق : اتبعنى ياسيدى واعلم أن المزاح فى قصر شهرزاد لايكذب أبداً . أنسيت البيت الذى استهواك منذ حين :

أقل ما فى أقلها سمك

قال توفيق :

يسبح فى بركة من العسل

قال صاحب الشرطة : هذا كلام تقرؤه فى ديوان المتنبى مع صديقك طه حسين . وكنت خليقاً أن تصطاد سمك السكر واللوز من بركة العسل لو لم تخالف عن أمر شهرزاد . فأما وقد فعلت ، فستصطاد الفسيخ والرشال والسردين من بركة المش . ثم أحس توفيق كأن قوة خفية تحمله وتدفعه إلى الأمام ، ونظر فإذا هو قد شد إلى كرسى من الخشب وأجلس إلى حوض طويل عريض يضطرب فيه سائل كدر كريه ويلعب فيه سمك مختلف الألوان والأحجام . وإذا أداة

الصيد فى يد توفيق ، وإذا صاحب الشرطة يقول له فى أناة وهدوء : تستطيع أن تلهو بالصيد حتى نأتيك . ثم ينصرف عنه وينصرف عنه الغلام . ويهم توفيق أن ينهض ليتبعهما فلا يستطيع لأنه قد شد إلى كرسيه شداً . على أن محنته هذه لاتطول ، فقد اصطاد سمكتين أو سمكات ، وكان كلما أخرج واحدة منها وهم أن يخلصها من السنارة وثبت إليه هذه تعلق بأنفه ، وهذه تعلق بخده ، وهذه تعلق بإحدى ذنيه ، وإنه لفى هذا الكرب العظيم والعذاب الأليم ، وإذا ضجيج يسمع من بعيد ثم يدنو شيئا فشيئاً ثم يعظم حتى يملأ الجو ، وإذا صاحب الشرطة يقبل ومعه جماعة من الجند فيحملون توفيقاً وقد خارت قواه ويسعون به مسرعين إلى حيث يلقونه إلقاء فى هذه الحجرة التى تهاجمها الأشباح وتقوم دونها الجنود السود . وقد أدركته شهرزاد وأنا معها ولم يبق فيه إلا رمق من حياة ، فلم تكد الملكة تدنو من السجن حتى انحاز عنه الأشباح ناحية ، وأقاموا مع ذلك ملحين يطلبون رأس هذا الأسير الذى أساء إليهم فى أنفسهم وكرامتهم وأعراضهم ، ويقسمون لايريمون حتى يبلغوا منه ما يريدون . قالت شهرزاد فى صوت كأنه حديث الورد النضر ، إن كنت قد سمعت للورد النضر أو الذابل حديثاً ، عودوا إلى مكانكم من القصر ، فسيكون لى معكم حديث ، ولكم علىّ ألا تنصرفوا إلا راضين .

سمع الأشباح هذا الحديث الحلو من ذلك الصوت العذب ، فانصرفوا فى أناة وهدوء ، وهمت شهرزاد أن تعود أدراجها ، ولكنى قلت لها مستعطفاً : والأسير ياسيدتى ؟ ألم يأن لك أن ترديه إلى ما أنت

أهل له من العفو والفضل ؟ قالت بلى ، ولكن بعد أن يأخذه الفتيات الحسان فيصلحن من أمره ويعدنه إلى كما أريد أن يكون . وما أتمت هذه الجملة حتى أقبلت الفتيات الثلاث الحسان مستخذيات يسعين على استحياء ويخفضن رؤوسهن ذلاً وانكساراً . فأخذن توفيقاً وأحطن به وانصرفن معه إلى الحمام .

وتعود شهرزاد وأنا معها إلى حيث كنا فيما كنا فيه من حديث المحاكمة لهذا الأسير البائس ، ونلتمس الحيل والوسائل إلى استنقاذه من هذه الأشباح الضارية والأرواح الباغية ، وأنا أهون الأمر على شهرزاد وأؤكد لها أن الزمان قاض عدل حازم لايعرف الضعف ولا الظلم إلى نفسه سبيلا ، تتغير الأشياء من حوله وتتبدل الظروف وتلتبس أخلاق الناس ، ويتنكر الأحياء للأحياء ، ويتنكر الأموات للأموات والأحياء أيضا ، تنقضى الدول وتقوم مكانها دول أخرى ، وتثل العروش وتبنى مكانها عروش أخرى ، ينتظم أمر الناس ويضطرب ، وتجتمع كلمتهم وتفترق ، والزمان كما هو ثابت مستقر لايحول ولايزول . وإن توفيقا لم يقدم على ما أقدم عليه حين كتب قصته إلاوهو عالم بما يأتى وما يدع ، مقدر لما سيلقى من نقد ، متهيئ لاحتمال ما سيتعرض له من تبعات ، وهو قد ثبت للأحياء فليس عليه خوف من الأموات . وإنا لفى هذا الحديث وإذا شهرزاد تبعث من فمها الطريف الدقيق آهة الفرحة المرحة المبتهجة الطروب ، فقد انفرجت الأستار الجانبية عن توفيق الحكيم وهو أجمل منظراً وأبهى طلعة مما يستطيع أصدقاؤه أن يتصوروا مهما

تذهب بهم الظنون .

والفتيات الثلاث الحسان يعلمن وحدهن ماذا أنفقن من جهد ، وماذا سلكن من حيلة ليرددن توفيق الحكيم إلى شهر زاد شاباً وسيماً أنيقاً رائع الجمال . ومن يدرى لعله يقص عليك سيرته معهن أو سيرتهن معه حين يكتب مذكراته فى يوم من الأيام .



في حضرة شهرزاد

ألقى توفيق الحكيم على المكان نظرة ذاهلة حيرى ، وإذا عيناه تقعان على شهرزاد الجميلة بين وسائدها الحريرية الموشاة بالذهب والفضة كأنها الشمس بين النجوم ، وقد مثل بين يديها الدكتور طه حسين يتألق فى ثوبه المزركش ووجهه الوضاء كأنه القمر . فما تمالك الأسير أن صاح :

يا للعجب ! طه حسين أيضاً ، حليقاً رشيقاً ، وسيماً أنيقاً !

شهرزاد : ينبغى لمن دنا منى أن يكون كذلك !

طه (فى خيلاء) : أو يعيش إلى جانب شهرزاد إلا من مسته يد الجمال ؟!

توفيق : كلام جميل ! . . لكن ما قولكما . . .

شهرزاد : تكلم أيها العزيز !

توفيق : أمن الجمال ما صنع بى صاحب شرطتك ياسيدتى العزيزة !

طه (يضحك ضحكاً قويًّا) : ماذا صنع بك ؟

توفيق : أتضحك ؟!

طه : قص علينا ما جرى لك بالتمام والكمال .

توفيق : وأنت قص على بالتمام والكمال سر هذا الضحك الذى لا أفهم له معنى !

طه : أما أنا فأفهم له معنى بديعاً !

شهر زاد (باسمة) : وأنا كذلك أفهم له معنى رائعاً !

طه : (مترنماً باسماً) :

إن شئت نوماً فعندنا سرر وثيرة فرشها من القش
أو شئت شرباً فإن بيرتنا تملأ رأس النديم بالوش
أو شئت أكلاً فإن جبنتنا لا يأتلي دودها من النغش

توفيق (وهو كظيم) : لا بأس !

شهر زاد : (تستطرد مترنمة باسمة) :

والحب عندى كما اشتهيت له بيض عظام قريبة الفقس
حياتنا لو علمت ناعمة لم يلقها قط عاهل الحبش
أقل ما فى أقلها سمك يسبح فى بركة من المش

توفيق (فى تقطيب) : مرحى ! مرحى ! أرى أنكما على علم واسع بكل ما وقع وكان . . . .

طه : أمر واحد لا ندرى عنه شيئاً .

شهر زاد : نعم أخبرنا ما فعلت بك الفتيات فى الحمام ؟

توفيق : فتياتك يا سيدتى خليعات وما كان من أمرهن معى ليس مما يحسن ذكره فى حضرة الملكات !

طه (فى ضحكة خبيثة) : أكان الماء بارداً أم دافئاً ؟

توفيق : كان كل شىء بارداً ! استرحت الآن ؟ واستراحت جلالتها ؟

شهرزاد : وا أسفاه ! إنك قد غضبت . ونحن لانحب لك أن تغضب !

توفيق : وماذا تحبين لى يا سيدتى ؟

شهر زاد : كل الخير .

توفيق : يا للك من ملاك طاهر !

طه (فى خبث ومكر) : أتتهكم على مولاتنا !

توفيق : سبحان الله فى طبعك يادكتور ! إنك تلقى الكلمة فتحرج بها المواقف ! وتعقد المسائل ، ثم تقول عنى بعد ذلك إنى رجل معقد .

طه (فى قوة) : أنا صريح . ألقى كلمة الحق صريحة !

شهرزاد : نعم . وهو يلقيها فى جرأة ولايخشى فيها لومة لائم . ومن أجل ذلك أحبه .

توفيق : هنيئاً لك به ! وهنيئاً له بك !

شهرزاد : عجباً من العجب ! أدرك بين نبرات صوتك . .

طه : وأنا أيضا أدرك . .

توفيق : ماذا تدركان أيها الصاحبان المتفقان ؟!

شهر زاد : نبرة تنم عن غيرة خفية إذ قلت إنى أحبه !

توفيق : دخلنا منطقة الكلام الفارغ الذى لاتحذقه غير المرأة !

طه (صائحا) : أستغفر الله ! أستغفر الله .

شهرزاد (لطه) : دعه ! فإن عداوته للمرأة سوف تكلفه ما لا يطيق .

طه : أريد أن ألقى كلمة صريحة ولكنى أخشى أن يقول عنى . . .

توفيق (مسرعاً) : إياك أن تلقى شيئاً . أهون على نفسى أن ألقى أنا فى بركة « المش » مرة أخرى من أن تلقى أنت فى أمرى كلمة حق ، أو أن تلقى أمامى شهرزاد كلاماً فى الحب والغرام ! . . .

شهرزاد : يا صديقى ! أود لو أفضيت إلى بسر . . .

توفيق : ليس عندى سر . . . .

شهرزاد : ما هذا الفتور والنفور بينى وبينك اليوم ؟

طه : ما من سر غير أنه مثل أغلب الشعراء وأهل الفن يلفظ النعمة ثم يبكيها ! . .

شهرزاد (لتوفيق) : أستبكينى غداً ؟ !

توفيق (يصمت ثم يفكر قليلا وينظر إلى شهر زاد قليلا ويهمس) : ربما ، إنى من فصيلة لاتغرد إلا فوق أطلال نعمة ذاهبة وآثار هناء ضائع !

شهرزاد : نعم ، هو مرض الشعراء والفنانين ! وإن شئت فهو ناموسهم الطبيعى . كم أرثى لأولئك الأشقياء البائسين !

توفيق : يعجبنى رثاؤك الحار هذا ياسيدتى ! . . توقعين الناس فى البلاء ثم ترثين لحالهم !

شهر زاد : من أوقعت فى البلاء ؟

توفيق : لا أريد أن أبعث الماضى فأذكر لك شهريار ، وقمراً

وغيرهما ممن تتراءى لى أشباحهم اليوم ثائرة على؛ إنما أريد أن أذكر لك رجلاً ماثلا أمامك وبلاء لم يمض على وقوعه غير قليل !

شهر زاد : أنت ؟

توفيق : نعم.

طه : أتسمحان لى أن ألقى بكلمة حق صريحة . . .

توفيق : أقسم بالله ثلاثاً إن نطق طه حسين بكلمة حق أو باطل لأقذفن بنفسي من النافذة !

شهرزاد (لطه) : انتظر هنيهة ياعزيزى حتى تهدأ نفس صديقنا !

طه : قد سكت . . .

شهرزاد : إنك تحسبنى أنا التى أمرت بك صاحب شرطتى ورجالى !

توفيق : وهل فى هذا القصر آمر ناه سواك ؟

شهر زاد : إنك تبالغ فى مقدار أمرى ونهيي !

توفيق : يا للعجب ! أهذا صحيح ؟!

شهر زاد : ثق أن هذا صحيح . وأنى لم أحب لك كل ما صنع بك . ولو استطعت أن أمنعك وأدرأ عنك لفعلت. قلبى مفعم بالخير والحب . ولكن سلطانى قاصر . . .

توفيق : أيطلب إلى أن أصدق هذا الكلام ؟ أنت الملكة العظيمة صاحبة الحول والطول فى قصرك هذا على الأقل !

شهرزاد : ثق أن الملوك بل الآلهة لايستطيعون دائماً أن يصنعوا كل ما يشاءون !

توفيق : وما قيمة ذلك الإله الذى لايستطيع أن يصنع كل ما يشاء !

شهر زاد : وهل يتصور كون منظم يديره إله يستطيع أن يعبث بكل من يشاء وقتما يشاء ؟!

توفيق (يلتفت إلى طه) : ما رأيك ياصديقى الدكتور ؟

طه : عجباً لك ! الآن تطلب إلى الكلام فى هذا الموضوع الشائك حيث يجب علىّ السكوت ؟ !

توفيق (لشهر زاد) : أرجو منك ياسيدتى أن تطلبى إلى صديقك الجرىء أن يلقى الآن كلمة حق صريحة !

طه (لشهر زاد) : كلا ياسيدتى العزيزة لاتفعلى . إنى الآن عميد مسئول . ولا شأن لى بالكلام فى الأديان والآلهة . وحسبى ما حدث لى قديما . . . .

شهر زاد (لطه باسمة) : يظهر أن صديقنا ليس ساذجاً إلى الحد الذى نظن .

طه : قلت لك إنه معقد .

توفيق (لطه) : أأنا معقد لأنى طلبت رأيك فى موضوع دقيق ؟

طه : أسنعود إليه ؟ رجائى الخالص منك أن تترك آلهة الإغريق والرومان وشأنهم !

توفيق : إن شهرزاد هى التى ذكرت الآلهة ، وما أردت منها إلا أن تذكر لى صاحب الأمر الأعلى فى هذا القصر .

طه : نعم ، تكلما فى شئون هذا القصر .

شهر زاد : فى هذا القصر وغير هذا القصر ، هنالك سلطان أعلى يخضع له كل كائن حى وغير حى ، وكل خالق وكل مخلوق .

توفيق : من هو هذا السلطان ؟

شهرزاد : القانون .

توفيق : وأى قانون هذا الذى أمر بتعذيبى اليوم ؟

شهر زاد : قانون القصر .

توفيق : ومن سن هذا القانون ؟

شهرزاد : أنا . .

توفيق : أو تخضعين له ؟

شهر زاد : لامناص لى من الخضوع ، وإلا اختل نظام القصر وحلت فيه الفوضى .

توفيق : ياللعجب ! أعرف حكومات شتى تسن القوانين ولاتخضع لها . . .

طه : حقاً . . أذكر أن قوانين الجامعة . . (ثم يسكت فى الحال) .

توفيق : تكلم !

طه : كلا . . . لاشىء . . .

شهرزاد (فى سخرية) : نعم إن البشر لهم هذا الامتياز على الآلهة . فهم يستطيعون أن يعبثوا بالقوانين التى يسنونها . أما الآلهة فلا يستطيعون مطلقا أن يحيدوا قيد أنملة عن النظام الذى وضعوه والقانون الذى خلقوه !

توفيق (فى إعجاب) : إنهم آلهة !

شهر زاد : وبعد ؟ أرأيت ياعزيزى كيف أنى بريئة مما ألم بك ، وأن قلبي لايمكن أن يحل فيه غير الحب والصفاء !

توفيق : وأن ما نزل بى هو من فعل القانون ؟

شهر زاد : هو ذاك .

توفيق : ربما كنت صادقة . إنى دائماً يخيل إلى أن العظمة فى عليائها لاتعرف غير الصفاء. ولا أتصور خالقاً ينظر إلى مخلوقاته نظرة غير نظرة الصفاء العميق !

طه : هذا كلام طيب. وما دمنا فى صدد الصفاء ، فما يمنعنا الآن من أن نعمر قلوبنا به . وأن يقبل أحدنا على الآخر باسم الثغر صادق الود .

شهر زاد : لا أحب إلى نفسى من هذا !

توفيق : وأنا أيضا . . لا أحب إلى نفسى منه .

شهرزاد (فى فرح) : حتى أنت ! ؟ لا أصدق ما أسمع .

توفيق : ياللعجب ! ماظنك بى ؟ أترينى بهذا المقدار إنساناً لايعرف الود ؟ !

شهر زاد : كدت أظن هذا .

طه : أألقى كلمة حق صريحة ؟!

توفيق : ألق الآن ما شئت .

طه : إنى أعرف توفيق الحكيم أحفظ الناس للود . .

توفيق : أتهكم ؟

طه (مأخوذاً) : سبحان الله ! احكمى ياسيدتى بالعدل ! أأنا تهكمت الآن ؟

شهرزاد : على النقيض .. إن فى صوتك صدقاً وإخلاصاً .

توفيق (فى خجل وندم) : إنى آسف. لقد أسأت الظن بصديقى... ولم أصدق ذلك القول منه .

شهرزاد : لو عرفت ما يصنع صديقك من أجلك . . . إنه لم ينقطع عن التفكير معى فى التماس الحيل وتدبير الوسائل إلى استنقاذك من هذه الأشباح الثائرة عليك .

توفيق : أهو صنع هذا ؟

شهرزاد : إنه فعل أجمل من هذا . إنه رأى إقناع الأشباح بالامتثال إلى حكم « الزمن » فيك . وهو واثق أن كلمة هذا القاضى ستنصفك وتنصرك عليهم جميعاً .

توفيق : وإذا لزم الزمن الصمت ولم يتكلم فى أمرى بخير أو بشر؟

شهرزاد : إنه قد دعى إلى الكلام والحكم ، فى مجلس تحضره أنت

ويحضره المطالبون برأسك والشهود العدول ، وقد وعد بالكلام والحكم في الأمر .

توفيق : المطالبون برأسى !

شهرزاد : أولا تعرف أنهم طلبوا رأسك ؟ !

توفيق : وما ذنب رأسى ! أخزاهم الله !

شهرزاد : ألم يخرجوا منه ! إنهم يريدون تحطيم المكان الذى خرجوا منه على تلك الصُّورة التى لاترضيهم ؟!

توفيق : وكيف يحطمونه !

شهر زاد : « الجلاد » قال إنه سيتولى ذلك فهى مهنته .

توفيق : ذلك « الجلاد » العاطل !

شهر زاد : إن أمرك الآن رهن هذه « القضية » .

طه : إنها ستكون قضية « الفكر والأدب » .

شهر زاد : ينبغى أن تستعد للدفاع عن نفسك .

توفيق : والقاضى . . .

شهرزاد : قلت لك هو « الزمن » .

طه : أظنك لا تطمع فى أعدل منه !

توفيق : ومتى يوم المحاكمة ؟

شهرزاد : لم يحدد بعد ؛ فقد رأى القاضى أن يبدأ بدرس موضوع القضية . وقد طلب نسخة من « الكتاب » فأرسلت إليه .

توفيق : كل هذا عجيب . وكل هذا لم يكن فى الحسبان . أنا الذى جاء إلى جبال سافوا طلباً للراحة والهدوء ؟

طه : اصبر ! لئن حكم « الزمن » لك فأى انتصار يكون وقتئذ للفكر وحرية الفكر ! وعند ذاك ننشر هذا الحكم فى الصحف معلنين انتهاء عهود الظلام وابتداء عهد النور !

توفيق : وإذا حكم بتسليم رأسى إلى ذلك الجلاد الذى باع سيفه لصاحب خان يحرق فيه القنب ويؤمه أنصاف المجانين ؟

طه : كلا . . إن إيمانى كبير بحكمة هذا « القاضى » .

توفيق : وأنا . . . مع الأسف . . .

ولم يتم توفيق الحكيم عبارته . فقد هبت فجأة ريح عاصفة خلعت أستار النافذة ودخلت القاعة محملة بغبار كثيف فى لون الرماد ، ألقته على فرش « شهرزاد » كما يلقى الشىء . . ثم خرجت الريح من حيث جاءت وهدأ المكان كأن شيئاً لم يحدث قط . ونظرت شهرزاد إلى فرشها . فإذا الرماد عليه قد اتخذ هيئة الخطوط والحروف وإذا هى رسالة تقرأ موجهة إليها . فطالعتها بإمعان ثم صاحت :

ــ تلك رسالة من « الزمن » !

طه (فى جد واهتمام) : ماذا يقول فيها ؟ . .

شهر زاد (فى كآبة) : واحزناه !

طه (فى قلق) : بحقك ماذا ؟

شهر زاد : إنه لايريد أن يبقى المتهم طليقاً . ويعلن أنه سيأمر به

فيحبس حبساً احتياطياً حتى يصدر فيه الحكم .

توفيق (لطه متهكماً) : أرأيت « حكمة » هذا القاضى الذى جئتنى به !

شهرزاد : صبراً ولا تخف !

طه (لشهر زاد) : وأين يكون الحبس ؟

شهر زاد : فى مكان لايعرفه غير « القاضى » .

طه : وكيف يقاد المتهم إلى ذلك المكان ؟

شهرزاد : ربما أمر به الزوابع فاختطفته !

توفيق (صائحاً) : خطف آخر ! . حرت والله وكدت أجن لأمر هذا الخطف ، ألا يعرفون وسيلة أخرى فى هذا المكان غير هذه! إذا طلبت للمسامرة أخطف ، و إذا طلبت للمحاكمة أخطف! ألا نكون فى أمريكا دون أن نعلم ؟!



القلق على توفيق الحكيم

قلت وقد نهضت متثاقلاً كئيباً ، فهل تأذنين لى ياسيدتى فى أن أودعك الآن لا قالياً ولا سالياً . قالت فى هذه السرعة وما يعجلك . قلت : فإن لى ياسيدتى أهلاً ما ينبغى أن تطول عنهم غيبتى . قال توفيق فى غضب وخبث : وعملا ما ينبغى أن يطول إهمالك له . قلت فى ضحك ورثاء : هو ذاك . قالت شهرزاد : نعم ذاك ، إن لأهلك عليك حقاً وإن لعملك عليك حقاً ، فأما الذين ليس لهم فى فرنسا أهل ولا عمل . . .

قال توفيق : فمن الممكن أن يخطفوا وأن يسجنوا وأن تلح عليهم المصائب وأن تفعل بهم الأفاعيل . قالت شهرزاد ، وقلت معها ضاحكا : هو ذاك . قال توفيق فى صوت محزون تكاد تخنقه العبرة : لست جاداً فيما تعزم عليه من الانصراف . قلت كل الجد ، وإنك لتعلم أنى لا أستطيع البقاء ، ولست أدرى فيم حرصك على بقائى . قال : أما أنا فأعلم فيم حرصك على الانصراف ، إنما تريد أن تتركنى وحيداً أقاسى ما أقاسى من الجهد وأحتمل ما أحتمل من الهم وألقى ما ألقى من العناء . قالت شهر زاد : شكراً لك ياسيدى ما أعرف أدباً أجمل من هذا الأدب ولا ظرفاً أرق من هذا الظرف . قال توفيق مرتبكاً : سيدتى إنك لتسيمينى ما لا يسام ، ولست أفهم كيف تنتظرين الأدب والظرف من رجل مثلى قد صبت عليه المحن ، مخطوف يراد به الخطف ، وسجين يراد به السجن ، وأسير كان يطمع فى حريته فإذا أقصى آماله سجن جديد لا يعرف أين

يكون، ولا كيف تكون حاله فيه . قلت : هون عليك فلست أرى بك بأساً، ولو كنت مكانك لنعمت بالساعة التى أنا فيها ولأرجأت التفكير فى الخطر إلى وقت وقوع الخطر . قال : فإنى لا أعلم أقريب هذا الخطر أم بعيد ، وأن ما أنا فيه الآن ذو الخطر كل الخطر . أو تظننى قد عرفت حقاً أين أنا وماذا يراد بى ومتى أنا راجع إلى ما كنت فيه . وتفضلت شهرزاد فشيعتنى إلى باب غرفتها وهى تقول فى صوتها المشرق الذى يغرى بالبقاء لا بالانصراف : « إلى اللقاء » وإلى اللقاء القريب . أليس كذلك ؟

وألقيت من دوننا الأستار وقد أسرع إلىّ صاحبى فالتفت إليه ضاحكاً وأنا أقول : ما ينبغى أن يرانى الناس ولا أن يرانى أهلى فى هذا الزى الغريب . قال صاحبى دهشاً : أى زى ! ؟ وهممت أن أتكلم ولكن دهشى لم يكن أقل من دهش صاحبى حين نظرت فإذا أنا فى زيى القديم الذى دخلت به القصر من تلك الفجوة لا أعرف كيف عاد إلى، ولا أذكر كيف نزعت عنى زينة الاستقبال ؛ وأريد أن أسأل صاحبى دهشاً عن سر هذه الفتنة التى لا أعرف أولها ولا أعرف آخرها ؛ فأنا أذكر كيف خلع علىّ ذلك الرداء الجميل الذى لقيت به شهرزاد ولا أعرف كيف خلع عنى ، وأعرف كيف خرجت من زيى القديم منذ حين ، ولا أعرف كيف دخلت فيه الآن ، ولكن الفتاة الجميلة الرشيقة تدنو منى فى دعابة وظرف وهى تقول :

— لا بأس عليك ياسيدى فإن الزى الذى تلقى به شهرزاد لا ينبغى

أن تلقى به أحداً غيرها ، ولاتنس أنك فى القصر المسحور .

وأبلغ الفندق بعد لحظات فإذا أنا أستقبل فى كثير من التجهم ، وغير قليل من السخط والإعراض . فلم تتعود أسرتى أن تفتقدنى فلا تجدنى ، ولا أن ترانى أغيب عنها دون أن أنبئها بعزمى على الغيبة وبالغرض الذى أنا قاصد إليه ، والمكان الذى تستطيع أن تلتمسنى فيه . وأنا أريد أن أتحدث إليها بجلية الأمر وأنبئها بحقيقته ، وهذا لسانى يتحرك فى فمى يريد أن يأخذ فى بدء الحديث ، ولكنى أرده إلى الصمت والسكون مشفقاً من العاقبة التى لاشك فيها وهى ضحك الصبيين وإغراقهما فى الضحك وإشفاق زوجى وإلحاحها فى الإشفاق مما أقول . هم جادون فى غضبهم ولو قصصت عليهم الأمر من أوله لأنكروه ، ولرأوا أنى أهزل حين يجدون وأتكلف حين يتبعون طبيعتهم . ولظن الصبيان أنى أعللهما ببعض هذا القصص الذى كنت أعللهما به أثناء الطفولة حين كانا يصدقان كل ما كان يقال . ومن لى الآن بأن يصدق هذان الصبيان — وهما ينكران ما يريان — وأن تصدق أمهما قصة هذا القصر المسحور الذى يقوم عند قمة من قمم الألب ، وقصة اختلافى إليه واشتراكى فيما يقع فيه من الأحداث ، كلا ما ينبغى أن أحدثهم بشىء من ذلك فلن يزيدهم هذا الحديث إلا غضباً وإشفاقاً ، ولعله يدفع هذين الصبيين إلى أن يظنا بأبيهما الظنون ويريانه من العجز والقصور بحيث لايستطيع أن يعلل غيبته بعللها الصحيحة الواضحة ، فهو يتكلف لها ما يتكلفه الأغرار من الحيل والمعاذير .

فأنا إذن أجتهد فى المداورة وأحيد عن القصة كلما دفعت إليها ، ولكن الأمر يتعقد فجأة ، فهم يسألوننى عن صاحبي توفيق ما خطبه ، أو أين ذهب أو كيف مضى على وجهه هكذا دون أن يودع قوماً كان معهم أو ينبئهم بمذهبه أو يستأذنهم فى الرحيل . فإذا زعمت لهم أنى لا أعرف من أمره شيئاً أنكروا هذا كل الإنكار ولاموني عليه كل اللوم ، وزعموا أنى مقصر فى ذات الصديق ، تلم به الأحداث فلا أحفل به وينزل به المكروه فلا أسأل عنه ، ومن يدرى لعله استجاب لهذه النزوات التى تعرض له فخيل إليه أنه يستطيع أن يتسلق الجبل فى ساعة أو ساعات كما كان يقول ، ولعله هم بذلك فمضى لطيته ثم اختلط عليه الأمر وتقطعت به الأسباب فهو لايدرى كيف يعود . ولعله تعرض لأكثر من هذا الشر فهوى إلى قاع سحيق أو غمره هذا الثلج الذى تثيره الريح فى أعلى الجبل أو زلت به قدمه فهو صريع يستغيث ولا يجد له مغيثاً .

لابد إذن من إنباء الفندق بأمره ثم من إنباء الشرطة ثم من إرسال الرسل يلتمسونه فى كل وجه فهو لم يرتحل قاصداً إلى الرحلة ، وهذه غرفته كما تركها ، فيها أثاثه كما تركه ، وهم يهمون أن ينبئوا الفندق والشرطة كما أرادوا ، وأنا أحاول أن أردهم عن ذلك وأكاد أنبئهم بأمر القصر المسحور ، ثم تصدنى عن ذلك بقية من حياء فأزعم لهم أن صاحبنا غريب الأطوار وأنه خليق أن يكون قد عاد إلى باريس كما أقبل منها لم يفكر ولم يقدر ولم يتخذ أهبة ولم ينبئ به أحداً .

والخير فى أن ننتظر لعله أن يعود إلينا أو لعل أنباءه أن تبلغنا بعد حين ، وأنا ألح فى وصف أطواره الغريبة وأحواله المختلطة وتصرفه فى الغربة على غير نظام حتى أكاد أقنعهم بأنه رجل شاذ كل الشذوذ ، لاينبغى أن ينتظر منه ما ينتظر من غيره من الناس ، فإذا فرغت منهم بعد جهد ولأى ، أقبلت على العمل الذى أهملته فأطلت إهماله ، وإذا أنا أمضى فيه ، وإذا هو ينسينى توفيقاً وأنباءه ويكاد ينسينى شهرزاد ، ولكنى أتلقى هذا الكتاب على النحو الذى تعودت أن أتلقى عليه الكتب، فى هذا الصيف .



شکوۂ شہرزاد

« من الحق يا سيدى أنك لم تكن قالياً ولا سالياً حين ودعتنى ، فقد طالت غيبتك عنى وما أرى إلا أن النسيان الآثم قد ضرب بينك وبينى أستاراً . ولو لا بقية من الثقة بك لعتبت عليك ، ولو لا فضل من حسن الرأى فيك لصدقت وشاية سجيننا البائس حين زعم لى أن شاعرك ينسيك حتى شهرزاد . وقد كنت أظن أنى لم أنعم بالخلود وحده ، وإنما نعمت به وبالشباب أيضًا ، ولكن شيئًا من الشك قد أخذ يعترضنى ويشغل بالى منذ أخذت أحس غموضًا فى بعض الأشياء واختلاطاً لبعض الأمر وقصوراً عن تفسير ما يقع حولى من الخطوب ، فأنا لا أفهم فيم طالت غيبتك وقد كنت أظن بك الحرص على لقائى ولا أفهم فيم انقطعت أنباؤك وقد كنت أنتظر منك الحرص على أن تتصل بينك وبينى الأسباب ، وهناك أمر آخر لا أستطيع أن أفهمه ويسوءنى حقًّا أن أشعر بعجزى عن فهمه وتأويله وهو أمر هذا السجين المسكين ، فقد تركته عندى حائراً متولهًا لايدرى ماذا يريد ولا ماذا يراد به ، وقد رجعت من تشييعك شديدة الرفق به والعطف عليه أريد أن أواسيه أوأسليه أو أتوجع له ، كما يقول الشاعر القديم ، ولكنى لم أكد آخذ معه فى الحديث حتى أقبل الأسود ينبئنى بأن ثلاثة نفر غلاظ شداد قد أقبلوا يطلبونه وهم يريدونه على أن يتبعهم ، فإذا سمع ذلك ضاق به أشد الضيق وامتنع عليه أشد الامتناع وجثا بين يدىّ خائفًا وجلاً ، وعائذاً يسألنى أن أجيره

ويتوسل إلى فى أن أحميه ، وهو يزعم لى أنه قد عرف القصر المسحور أو عرف بعضه وبلا آلامه ومحنه أو بلا بعضها ، وهو يؤثر ما يعرف على ما لا يعرف ويفضل ما بلا على ما لم يبل . وهو بعد هذا كله سعيد حين يشعر بأنه فى كنفى وفى ظلى آمن أن ينتهى به المكروه إلى أكثر مما يطيق أو أبعد مما يحتمل .

ولست أخفى عليك أن قلبي قد رق له وإن كان قلبي قد عاهدنى على ألا يرق لأحد . فأخذت أهدئ من روعه وأهون الأمر عليه، ثم طمعت فى أن أخرجه من هذه المحنة وأحميه من غوائل الزمن ، وقلت للأسود اذهب فقل لهؤلاء النفر إن شهرزاد تجير هذا الرجل وتحميه حتى من الزمان . وما سمع ذلك حتى انكب على قدمى يقبلهما فى حرارة وسعادة وفى أمل ورضى ، وأنا قد دبرت أمرى تدبيراً وأحكمته الإحكام كله ، وأزمعت أن أدخل هذا الأسير فى ذلك البهو الحرام من القصر . ذلك البهو الذى لايدخله ولايخلص إليه أحد غيرى ولا يستطيع الزمان أن يتجاوز ما يلقى على بابه من الأستار ، وإنى لأدير الأمر فى نفسى وآمر أسيرى بالنهوض فينهض مشرقًا مغتبطًا وأنا مطمئنة آمنة أن يدخل هؤلاء النفر على قبل أن أمضى ما شرعت فيه ، فما استطاع أحد قط أن يدخل على شهرزاد دون أن تأذن له فى الدخول ، ولكن واأسفاه.. واحسرتاه.. والوعتاه ، هذه النافذة تفتح ولست أدرى كيف فتحت ولا من فتحها ، وهذا الفتى ينتزع من بين يدى ويعلق فى الهواء تعليقاً ويدفع فيه دفعًا بطيئًا وهو موله مدله قد فقد صوابه وغاب عنه رشده وهو يرسل إلى

نظرات فيها التوسل والتضرع والاستعطاف . وأنا واجمة أول الأمر ثم غاضبة لهذا الحرم الذى اعتدى عليه ، ثم ثائرة لهذا الجوار الذى استبيح وأنا أسعى إلى الأسير أريد أن أستنقذه من هذه الأيدى الخفية التى تعلقه وتسعى به فى الهواء، ولكنى لا أكاد أبلغه حتى يدفع دفعة عنيفة وإذا هو قد خرج من النافذة ومضى فى الجو كأنه السهم . هنالك رجعت كئيباً كاسفة البال تكاد تنحل قواى، لولا أن قواى لا تعرف الانحلال، فآويت إلى مجلسى أو إلى مضجعى الذى تعودت أن ترانى مستلقية عليه . وجعلت أفكر فى هذا الأمر الذى أعرف أوله ولا أقدر آخره . وأنت تعلم أن قد كانت بيننا وبين الزمان فى العهود القديمة جداً حرب ضروس كاد يمحقنا فيها محقاً لولا أننا انتصرنا عليه بالحيلة واضطررناه أن يمضى بينه وبيننا صلحاً قوامه أن له منا المسالمة ولنا منه الخلود ، فالزمان كما تعرف يأكل أبناءه جميعاً، وقد كان يريد أن يأكلنا فيمن أكل، ولكنا أفلتنا من شباكه وأكرهناه على أن يضمن لنا البقاء ونضمن له السلم . أفتراه قد ألغى ما بينه وما بيننا من صلح ونقض ما أعطى على نفسه من عهد ، افترانا مضطرين إلى أن نعيد الحرب بيننا وبينه جذعة وأن ندك الأرض والسماء دكاً فإما انتصر علينا فأكلنا فيمن يأكل ، وإما انتصرنا عليه فأثقلناه بالقيود والأغلال ؟ أفتراه اتخذ هذه القضية التى لجأنا إليه فيها عن رأيك ومشورتك إلى إفساد الأمر بينه وبيننا ورد الحياة كما كانت قبل أن يعرف القانون والنظام ؟ أم ماذا ؟ ما هذا السجن الاحتياطى الذى يفرضه على رجل مسكين من الناس ليس له

حول ولا طول بإزاء سلطان الزمان الذى لاحد له ؟ مم يريد أن يحتاط ولمن يريد أن يحتاط ؟ أفتراني فى حاجة إلى أن أثير إخوتى جميعاً من قصورهم حيث ينعمون كما كنت أنعم بالراحة الخالدة والهدوء المتصل لنستأنف بين الزمان وبيننا صراعاً كنا نظن أنه مضى إلى حيث لايعود ؟ لاتغضب ياسيدى ولايثقل عليك قولى ، لقد أحسست شيئاً من الندم على هذه الفرصة التى أتاحت لى الاتصال بك وبصاحبك ، فما عرفت أننا نجنى من لقاء الناس أو الاتصال بهم خيراً . وإنى لأخشى أن يكون لقاؤنا هذا الصيف نذيراً بشر لانقدر عواقبه ولايقدر الزمان نفسه عواقبه . أسرع إلى وأشر على فقد اختلط الأمر أمامى أشد الاختلاط ، وويل للخالدين حين يدبرون أمرهم من الهالكين . ولكن لابد مما ليس منه به ، لقد بدئت القصة فيجب أن تنتهى . ماذا كتبت إليك ؟ أخشى أن أكون قد آذيتك وتحدثت إليك بما لاتحب ، ومع ذلك فما أردت بك شرًّا ولا قصدت إلى ما تكره ، ولكنك تعلم من أمرنا غير قليل فقد ألممت بسيرتنا فى الزمان الأول ، وعرفت ماذا بلونا من الناس وماذا بلا الناس منا . وما أيسر العلم بذلك ، لك ولغيرك ، لو تقرأون ما تسمونه الأساطير .

« معذرة إليك ياسيدى ، أسرع إلى وأشر على ، فما أرى إلا أننا قد استقبلنا عهداً جديداً سنستأنف فيه حياتنا الأولى فنتصل بالناس ويتصل الناس بنا ، فلتعن الأقدار كلاًّ على كل كما قال الخطيب العربى القديم . إلى أن ألقاك أو ألتقى ردك على ، أرجو أن تقبل ياسيدى تحية المحزونة المشوقة إليك »

شهرزاد

مواساۃ شہرزاد

«سيدتى :

« بعض هذا الفزع والجزع ، وبعض هذا اليأس والقنوط ، فقد روعنى كتابك حقًّا وأذهلنى عما كنت أضطرب فيه من شئون الحياة. ولئن كنت عاتبة على ياسيدتى لأنى قد غبت عنك فأطلت الغيبة ، فإنى عاتب عليك لأنك قد روعتنى فأسرفت فى ترويعى دون أن يكون فى الأمر ما يدعو إلى بعض هذا الاضطراب ، فضلاً عن كل هذا الاضطراب تنكرين غيبتى الطويلة ، فقد آمنت لى ياسيدتى بأن لأهلى على حقًّا وبأن لعملى على حقًّا ، أفتمنحين باليمين وتستردين بالشمال ؟ ولئن طالت غيبتى عنك يا سيدتى فما طالت عن رغبة ولا عن رضى ، ولكننا نتشبه بك وبأترابك الخالدين فنرى أن لقوانين الحق والواجب حرمة يجب أن ترعى ونكره لأنفسنا أن نتجاوز حدود هذه القوانين أو أن نخالف عن أمرها ، ولقد زعمت لصديقنا الأسير البائس أن ملوك الناس وأصحاب السلطان أقدر منك على تغيير ما يشرعون من قوانين ، بل على انتهاك ما لهذه القوانين من حرمات ، وأنك على خلودك وسلطانك الذى لاحد له عاجزة عن تغيير ما شرعت لنفسك وللقصر من قانون ، فنحن ياسيدتى نحب هذه الرعاية للقانون المشروع ، ونكره الخروج عليه ونضيق أشد الضيق بجور الجائرين منا وتجاوزهم للحدود ، ونرى أن نتشبه بكم ما استطعنا وأن نؤدى للحياة حقها ؛ ففى حين يجب

الوفاء ونخلص حين يجب الإخلاص ونعمل حين يجب العمل ، لانؤثر أنفسنا بالراحة ولا باللذة ولابلقاء الأحباء إلا حين تبيح لنا قوانين الحياة والواجب هذه الراحة وهذه اللذة وهذه النعمة بلقاء الأحباء. أفتنكرين على ياسيدتى ما تعرفين لنفسك وما تحبين أن نحمد لك من السيرة والخصال. إنى لأعلم أنكم معشر الخالدين تتهموننا نحن معشر الهالكين بكثير من الغرور والكبرياء ، ترون أننا نتجاوز حدودنا ونخرج عن أطوارنا حين نتأثركم ونسير سيرتكم ونحاول أن نرعى القوانين كما ترعونها وكثرة الناس من حولنا يرون فينا رأيكم هذا ، يتهموننا نحن العقليين بالفلسفة والشذوذ ، والفلسفة والشذوذ عندهم يؤديان ما تؤدونه أنتم حين تذكرون الغرور والكبرياء . فنحن حائرون يا سيدتى ، نتأثركم فتغضبون علينا وتسخطون منا لأننا نطمع فى غير مطمع ، ونتأثركم فينقم الناس منا ويضيقون بنا لأنا نخرج عما يحبون ويألفون ، ولو أننا أعرضنا عن تقليدكم ومضينا مع الدهماء فتبعنا الهوى وأطعنا الغريزة وخرجنا كما يخرجون على قوانين الحياة والواجب لغضبتم علينا ولأنكرتمونا ولألحقتمونا بالعامة وصببتم علينا مثل ما تصبون عليهم من المقت والازدراء . هل لك ياسيدتى فى أن تنبئينا نحن المفكرين البائسين كيف نصنع لإرضائكم فإنا قد يئسنا من إرضاء الناس ؟ أفترين أننا سنيأس من إرضائكم أيضاً وسننتهى إلى ما انتهى إليه جماعة من الأفذاذ النادرين ، فنرى أن العقل خليق أن يستغنى بنفسه وأن يتمرد عليكم وعلى الناس جميعًا ، وألا يحفل إلا بأن يرضى هو وما أقل ما يرضى . لقد طالت غيبتى عنك ياسيدتى وما أحببت ذلك ،



ولو طاوعت نفسى لرغبت إليك فى أن تخطفينى كما خطفت أسيرك البائس وفى أن تمسكينى عندك وترصدى لى العيون والأحراس حتى لا أتجاوز بابًا من أبواب قصرك المسحور . ولكن ماذا أصنع ولأهلى على حقوق ، ولعملى على حقوق ، وللذين أعرفهم والذين لا أعرفهم من الناس على حقوق . إنما حظى من لذة القرب منك والاتصال بك حظ مقدور لم يتح لى إلا بين حين وحين ، حين يأذن لى القانون الذى أخذت نفسى به أن أنعم بهذه اللذة وأستمتع بهذه الحياة الحلوة . فاشفقى على يا سيدتى من هذا الحرمان وارحمينى من هذا القصور ولا تتهمينى بالإهمال والتقصير ، ولا تسمعى فى وشاية مهما يكن مصدرها وإن كان هو أسيرك العزيز عليك وعلى معًا .

على أنى أعود ياسيدتى فأستأذنك فى الرثاء لك والإشفاق عليك ، وأعترف بأن الأمور قد دارت دورتها وتكشفت عما لم أكن أنتظره ولا أرجوه ، فكيف أصدق أن شهرزاد الخالدة التى لا حد لقوتها وسلطانها تحتاج إلى أن يرثى لها ويشفق لها ضعيف هالك مثلى . يظهر أن نظام الكون قد تغير أو أنه آخذ فى التغير . ماذا تشكين فى قوتك وتنكرين سلطانك وذكاءك ، وأنت التى تمنحين أمثالنا القوة والسلطان والذكاء ، ولكن ماذا أنكر وقد انتهينا إلى عهد لا ينكر فيه شىء ولا يعرف فيه شىء . قد اضطرب كله ، فالمطر ينهمر فى أوقات الصحو ، والصحو يشرق فى أوقات المطر ، وقد أصبح الصيف شتاء والشتاء صيفًا ، وقد انقلبت الأوضاع واضطربت النظم واختلط كل تقدير وتدبير ، ولو

أن لعقولنا بقية من الثقة بنفسها لما شككت فى أن الحياة قد عادت كشأنها يوم خلق الله السموات والأرض ، وفى أن ما بلغنا إليه من رقى قد استحال إلى تراجع وانحطاط. ولكن لنتدبر أمرنا ياسيدتى ولنستقبل ما يعرض لنا بشىء من الحزم والعزم ومن الأناة والتفكير . ما هذا الخوف الذى يملأ نفسك الخالدة ، وما إشفاقك أن يكون الزمان قد عاد سيرته الأولى وأراد أن يعيد الحرب بينكم وبينه جذعة ليأكلكم كما يأكل أبناءه الآخرين ؟ أكل هذا لأنه كره أن يموت أسيرك قبل أن يأتى أجله فاستنقذه منك وضمن له حياته ليتم مايريد الله أن يتمه فى هذا الكون ، فأنت يا سيدتى كنت تريدين أن تقتلى أسيرك لا أقل ولا أكثر ، فهل فكرت فى معنى استنقاذه من الزمان وحفظه حتى لايصل إليه ، إنما معنى هذا الموت بل معنى هذا أبلغ من الموت ، معناه الفناء الذى لاوجود معه ولاوجود بعده ، فأى شىء نحن إذا لم يشملنا الزمان بحمايته ورعايته ، وأى شىء أنتم إذا لم يشملكم الزمان بحمايته ورعايته ، لقد ضمن لكم الخلود فى ذلك الصلح الذى أمضيتموه ، ولكنه لم يضمن لكم تجاوز حدوده ولا الخروج عن سلطانه. وهل تعرفين للزمان حداً وهل تعرفين لسلطانه غاية تنتهى إليها ؟

« معذرة ياسيدتى ، لقد كنت أظن أنك أنت التى ألهمت حكيم المعرة هذا البيت العجيب :

ولو طار جبريل بقيـــة عمره

من الدهر ما اسطاع الخروج من الدهر

« أترين أبرع أو أروع من هذا فى تصوير سلطان الدهر الذى لاينتهى وملكه الذى لاحد له . لم يضمن الزمان ياسيدتى فراقه ولا الخروج عن سلطانه ، وإنما ضمن لكم صحبته أبداً وجعل الفرق بينكم وبيننا أننا نحن نأكل وأنتم لاتأكلون ، فقد كنت تريدين ياسيدتى أن تكرهى الزمان على أن يأكل توفيقاً قبل أن يتم نضجه . أفتغضبين لأنه أبى أن يأكله نيئاً ؟ وما رأيك فيمن يريد أن يكرهك على أن تأكلى من الألوان ما لاتحبين ولا تسيغين ؟ إنما نحن ياسيدتى ملك الزمن ينشئنا وينمينا وينضجنا حتى إذا بلغنا حاجته ورضاه أكلنا كما يشاء هو لا كما نشاء ولا كما تشائين .

« وغريب ياسيدتى ألا تفهمى مم يحتاط الزمن ولمن يحتاط بحبس هذا السجين ، فإنه يحتاط للسجين نفسه أو لا ، فمن يدرى او خلى بينه وبين الحرية ، لعله أن يكتب كتاباً آخر يسوء به هذه الأشباح الساخطة الصاخبة ، فيزيدها غيظاً على غيظ وهياجاً إلى هياج . ويحتاط لهذه الأشباح التى لجأت إليه وقبلت حكمه ، فمن حقها عليه أن يحميها من كتاب جديد ويحتاط لك أنت من أن يعود الأسير إلى ما يرى خصومه أنه إثم ، فيعود هؤلاء الخصوم إلى إثارة الضجيج والعجيج من حولك وإلى الإلحاح عليك فى تسليمه ، ومن يدرى لعلهم يخرجون عن أطوارهم فيحدثوا فى قصرك حدثاً أو يبطشوا بالأسير بطشاً يسوءك فيه ويحزنك عليه . لاتنكرى إذن على الزمان احتياطه فهو حكيم فيما يأتى إن كنت قد رأيته يأتى شيئاً ، وهو حكيم فيما يقول إن كنت قد سمعته يقول شيئاً . إنما الخير ياسيدتى

أن تطمئنى لقول الزمان وفعله ، وأن تصلحى ما بينك وبينه من الأمر ، وأن تستأذنيه فى لقاء أسيرك من قريب أو البر به من بعيد ، فذلك أنفع وأجدى من ثورة لاتغنى عنك ولا عنه شيئاً . إنما الخير ياسيدتى فى أن تتعجلى نظر الزمان فى هذه القضية حتى لايطول سجن الأسير ، وحتى تنتهى هذه القضية كما بدأت فتستريحى ونستريح ويستريح الزمان . وما أرى أنه سيجيبك إلى السرعة فى إنجاز هذه القضية ، فإن حياة الناس من حولنا مضطربة كما ترين ، وأخشى ألا يفرغ الزمان لقضية صديقنا المسكين قبل أن يفرغ من هذه القضايا الخطيرة الكبرى التى تفسد ما بين الشعوب .

« أما بعد ، فإنى ما كرهت ياسيدتى ، وما ينبغى لى أن أكره شيئاً تقولينه لى أو تسوقينه إلى . فكل شىء يأتى منك عذب لذيذ ، تطمئن إليه النفس وينعم به القلب ، فارضى فالنعيم فى رضاك ، واغضبى فإن الألم فى سبيلك لذة ، ولا تحسبى أن ندمك على الاتصال بى وبصاحبى يسوءنى ، فستعلمين إن لم تكونى علمت من قبل أن الخلود وحده لا يكفى لسعادة الخالدين ، وإنما قيمة الخلود أن يتصل من حين إلى حين بالفناء وأصحاب الفناء ، ليقدر نفسه ويكبرها ويرتفع عن السأم والملل ، وعن اليأس والقنوط ، وإلى أن تنعمى على سيدتى بساعة حلوة فى حضرتك أرجو أن تتفضلى فتمنحينى يدك الكريمة الرشيقة لأضع عليها قبلة كلها وفاء وحب وإخلاص »

في الحبس الاحتياطي

أمر « الزمن » بتوفيق الحكيم فحبس فى برج ساعة كبيرة فى رأس كنيسة « كومباو » على ارتفاع ألف متر عن سطح البحر . ذلك أن « الزمن » دائما يقول : « إذا كانت المساجد والكنائس هى بيوت الله، فإن أبراج الساعات هى بيوتى » .ولا يعرف غير رب البرج كم من الأيام لبث المتهم فى ذلك الحبس ، لايسمع غير دقات « النصف» و «الربع » وصرير « العقارب »التى تأكل حياتنا لحظة لحظة، و «التروس » التى تطحن وجودنا ذرة ذرة . وبينا المتهم قد أطرق يأساً وذلاً، لايفكر فيما كان من أمره ولا فيما سيكون ، كأنما عقله قد كل وذهنه قد أقفر ، وكأنما يأسه قد أغراه بأن يقذف نفسه فى « طاحونة الزمن » لتحيله العقارب والتروس إلى دقيق يتناثر فى الهواء ويعيش سابحاً فى الفضاء ، إذا « الريح » تلقى إليه برسالة مختومة من كوة فى قمة البرج . ففض الرسالة بيد كسلى ونفس ميتة وقرأ :

« عزيزى

« يشق على أن تخطف منى سريعاً وأن يذهب عنى الصفاء الذى أشرق به وجهك فى اليوم الأخير . ولكن « السارق مسروق » ولقد سرقتك فسرقت منى ، إن « القاضى » لم يأذن لى فى دخول الحبس كى أراك ؛ غير أنه أذن لى فى الكتابة إليك . ولطف بى فأمر أن تحمل إليك رسالتى

على أجنحة « الريح » فإذا طالعتها فهل لى أن أطمع فى كلمة منك تقيم بها أودى حتى تعود إلى ؟

شهر زاد

وقعت الرسالة من يد السجين ، وقد تغير وجهه . لكنه التقطها فقرأها من جديد وقرأها وقرأها حتى كاد يقطعها قراءة . ثم صاح : « هذه المرة قد أصابت منى مقتلاً ! ».

« أين القلم والقرطاس ؟ » فتساقطت عليه من الكوة أقلام وقراطيس . . . فجلس من فوره وكتب :

« سيدتى » . ولكن هذا النداء لم يرقه . فمزق الورقة وتناول ورقة أخرى وكتب .

« عزيزتى » . غير أن هذا اللفظ أيضاً فيه فتور . وهو يريد لفظاً كالسياط الساخنة . فمزق القرطاس وتناول غيره وكتب :

« معبودتى

« إن حبك خالد كالوجود . ولن يستطيع الزمن أن يفرق بيننا أو يحطم حبنا . إن الحب يحلق فوق الزمن ، كما يحلق الفراش فوق الأزهار . إن الحب قد قتل الزمن . . . وما بلغ السجين هذه العبارة حتى سمع ضحكاً عريضاً وقهقهة خشنة كلها سخرية رن صداها فى المكان وارتجت لها عقارب الساعة . ثم خفت الضحك وتلاه صوت أجش عميق النبرات يقول هازئاً :

— من هذا الأبله الذى يزعم أنى قتلت ؟

ولم يسمع السجين غير ذلك . فقد خيم السكون . وكأن شيئاً لم يكن فى هذا المكان . على أن هذا الصوت الهازئ لم يبرح له صدى يرن فى رأس السجين ويلعب بأفكاره حتى قلبها رأساً على عقب . فرفع القرطاس ومر عليه ببصره وابتسم ، ثم مزقه وتناول قرطاساً آخر وكتب :

سيدتى :

أما أنى خطفت منك سريعاً وسرقت وشيكاً وأنت الخاطفة السارقة — ولا فخر — فهذا ما يحدث دائماً . فإن السارق كما قلت مسروق . وما جاءت به الرياح ذهبت به « الزوابع » ! ويظهر أن هذا قانون الحياة كما هو قانون القصر! وحياتنا السريعة إن هى إلا خطف فى خطف ؛ ولقد خطفتنى من أصحابى فخطفنى منك الزمن ، ولا أدهش إذا خطفنى من الزمن من هو أقوى منه ، أما أن كلمة منى تقيم أودك فهو أمر يدهشنى ، ولا أغبطك عليه ، فيا لضيعة إنسان تقيم أوده كلمة منى ! . . وأما رغبتك فى زيارتى بالحبس فهو رفق بى ولطف لا أحسبنى أنساه لك . وبعد ؛ فإنى أخشى أن تكون كلمتى أغلظ مما كنت تتوقعين . ويخيل إلى ظنى السيئ بالمرأة أن كل رسالة تخلو من الإشارة إلى « الحب » هى عند المرأة رسالة غليظة . وأؤكد لك ياسيدتى أنى ما كنت أضن على مثلك بهذه الإشارة لو لم يكن « الحب » هذا الصبى الرقيق الضعيف لايبدأ الكلام أول ما يبدأ إلا بتحدى « الزمن » ذلك الجبار الطاغية المخيف ، ولا يفتح فمه الصغير إلا بأغان وأناشيد ينظمها من ألفاظ براقة متلألئة يرى الزمن أنها له وحده ، وأنها ما وجدت إلا ليرصع بها تاجه

الهائل .. هذه الألفاظ هى « الخلود والأبد والبقاء » يلعب بها « الحب » الجميل لعب الأطفال بكرات البلور ذات الألوان تحت أقدام « الزمن » الساخط الساخر . إلى أن يضيق « الزمن » به وبعبثه ذرعاً فينفخ نفخة صغيرة فإذا « الحب » قد طار بأناشيده وألفاظه ولعبه وأغانيه ! ومع ذلك ياسيدتى فأنت تعلمين أن أمرى الآن بين يدى « الزمن » وأن « قضيتى » الساعة موضع نظره . فهل أستطيع اليوم أن أغضب هذا « القاضى » العظيم بالانصراف إلى ذلك الطفل اللعوب !؟ . .

وأخيراً يا سيدتى أرجو أن تتقبلى خالص شكرى على جميل عنايتك ، وأن تأذنى لى فى أن أضع عند قدميك :

توفيق الحكيم

دارت « العقارب » دورتها ، واستقبلتها أجراس البرج بالضجيج ، ورجعت « الريح » مسرعة تحمل إلى السجين الجواب :

« أيها الأسير العزيز

« فهمت كل شىء : ما أشد خوفك وخوف صديقك من « الزمن » !

لقد وجه طه حسين إلى كذلك كتاباً طويلاً عريضاً تترنح سطوره فرقاً من مخاصمة « الزمن » ، ذلك الغول الجائع الذى يأكل الناس فى غير ميعاد غداء أو عشاء .

ولقد تبينت من قول صديقنا طه أنه لا يريد لك ولا لنفسه أن تؤكلا نيئين قبل أن يتم نضجكما وقبل أن تفرغا كل ما فى

جعبتيكما من كتب ومقالات ، فراح يتهمنى فى صراحته الجريئة أنى أريد الموت العاجل لمن أسعى إلى استنقاذه من يد الزمن .زعم غريب ! فأنا لا أعرف الموت ما هو . لأنى كما تعلم أعيش دائما . وكنت أريد لكما حياة صافية مثل حياتى فى ذلك القصر الجميل الذى لا يموت الصيف فيه أبدا . ولكن. . . لتكن مشيئة صديقك طه. وليمض فى إشفاقه على نفسه وعليك وعلى الكون المسكين ، الذى لا محالة صائر إلى الفناء بعدكما ، سائر إلى حيث تنخر فيه عوامل الفساد إن غادرتماه قبل أن تريقا عليه كل ما عندكما من محابر ، وتنثرا عليه كل ما فى رأسيكما من نثر ! !واهاً لكم أيها الأدباء !

« لقد طال بى العهد فنسيت أن رؤوسكم الآدمية العظيمة يوم تقدم للدود لن يجد فيها غير ، كلمات مرصوصة ، لاتسمن ولاتغنى من جوع ! إنى فى حقيقة الأمر أرثى لكم معشر الآدميين : ما أشق جهدكم طول الحياة إرضاء « للزمن » ، وما أشد حرصكم على ألا يلقى بكم فى أعماق بحاره الظلماء ، التى لايعرف هو نفسه مقرها ولا غورها : بحار النسيان ! ما حرصكم هذا أيها الحمقى ! إنكم يوم تذهبون لن يعنيكم من أمر « الزمن » شيء . وسوف تنقلبون أشياء لاتعرف الدنيا ولاتذكرها ولا تحفل بشعرها ونثرها ومجدها . إنكم يوم تتجردون من هذا الثوب الآدمى ، تتجردون كذلك من تلك الأوهام والأحلام التى تدفعكم إلى تقدير « الزمن » . فالزمن نفسه ما هو إلا الملك المتوج على عرش تلك الأوهام والأحلام ، فإذا ذهبت من أدمغتكم ذهب معها . فهو منسوج من مادتها . وهو

أضعف وأوهى مما تتصورون . فهو لاشيء غير فنائكم الآدمى تجسم شبحاً هائلاً أحاط بكم من كل جانب . بل إن مخيلتكم الفانية هى التى أفرزت هذا السم الذى تسمونه « الزمن » ثم طلت به حياتكم وسجنتها فيه. فشأنكم شأن « دودة القز» تفرز من لعابها تلك المادة الحريرية التى ما تزال تلتف حولها وتحيط بها حتى تحبسها وتخنقها وتميتها .

فالوجود نفسه يسخر من تلك الكلمة ولايعرف إلا أنها حماقة من من حماقات البشر أو ضرورة من ضرورات حياتهم الزائلة . بل إن الوجود لايعرف ولا ينبغى له أن يعرف هذا الكائن الموهوم « الزمن » ولقد استعان صاحبك ببيت من شعر المعرى ، بديع الخيال حقاً :

ولو طار جبريل بقية عمره

من الدهر ما اسطاع الخروج من الدهر !

لست أذكر أن كنت أنا التى أوحت إليه به فى ساعة من ساعات لهوى وعبثى ، إنما الذى يدهشنى الآن هو هذا السؤال : هل لجبريل عمر ؟ وهل هو يتحرك بجناحيه فى الزمان والمكان ؟ إذاً فهو بشر . إلا إذا قصد بالدهر الله والوجود . فإن الحركة فى الزمان والمكان ليست من صفات الخالدين ، تلك كلمات. ابتدعها البشر لأنفسهم ولوصف حياتهم ! إنى أعجب دائماً لأولئك الذين يريدون كشف أسرار الله بكلمات من قاموسهم اللغوى ! أليس من المضحك أن تصطنع أيديكم الصغيرة ذلك المسبار القصير لتسبر به غور الكون . . ؟!

أما « الحب » الذى تهزأ به ، فهو حقاً ضعيف رقيق كالزهرة التى

لاتعيش أكثر من يوم. ولكنه جميل والجمال لاعلاقة له بالزمن ؛ فإن اللحظة منه تكفى لإضاءة حياة كاملة . إن لم تصدقنى فأصغ إلى همسات فلاسفتك العظام وقد أشرفوا على الحفرة :

« الكل باطل وقبض الريح . . . واحسرتاه ! ولاشىء فى حياتنا الآدمية يستحق منا الآن تحية وداع : غير لحظة حب ظفرنا بها » .

« وبعد ، فإنى أخشى أن أكون قد قسوت عليك . وأحب أن تعتقد أنى على الرغم من رسالتك لم أزل لك صديقة وفية . وإنى أنتظر نافدة الصبر ساعة الحكم ببراءتك . وإنك لن تجد منى فى كل حين سوى عطف خالص لاينتظر أجراً . فنحن الخالدين قد اعتدنا أن نعطى ولا نأخذ . على أنك إذا تفضلت فقبلت منى ، راضى النفس صادق الإيمان ، ما أبعث إليك مع هذا الكتاب من حب هادئ ، لايرجو شيئاً ولا « يتحدى أحداً » ولا يعرف الأغانى والألفاظ والأناشيد ، فإنك تعيد ابتسامة الصفاء إلى ثغر المخلصة لك .

شهر زاد

لم يقرأ المتهم هذه الرسالة مرة ثانية ، ولم يضع وقتاً ، وتناول من ساعته القلم وكتب :

« سيدتى العزيزة :

« أبادر فأعترف لك أن كلامك عن « الزمن » قد أدهشنى حقيقة. كلا ، لست أصدق أنك تؤمنين بما تقولين !

« إنما هى ثورة أهاجها فى نفسك كتابى ، الذى آثرت فيه

الانضواء تحت لواء « الزمن » على السكون تحت جناح « الحب » ، فرأيت أن تنصرى « الطفل » بأن تحملى على « الجبار » على أنى أراك أنت أيضاً تنتضين سلاح « الكلمات » حاسبة أنك بها تستطيعين أن تقتلى وأن تمحى من الوجود هذا الكائن الذى نحيا جميعاً فى أحشائه . أتأذنين لى فى أن أسألك : أين تعيشين ؟ ألا تحسين بأنك تعيشين فى الزمن ؟ هذا الخلود الذى تنعمين فيه ، ما هو ، وما معناه ؟ أليس هو الحياة المتصلة فى « الزمن! » إن الزمن ليس وهماً ، إنما هو إناء عظيم لا قاع له يسبح فيه الأحياء والأموات ، الخالدون والهالكون . فإذا أخرجت منه ، فأين تكونين وإلى من تصيرين ؟ العدم ؟ إن كان لهذه الكلمة أيضاً معنى أو وجود لكانت قليلة ! فإن من خرج من قصر « الزمن » نزع عنه رداء « الخلود » .إذ لا « خلود » إلا بالقياس إلى « الزمن » ! فالزمن كما ترين يفرض سلطانه حتى على الخالدين . فهو الذى يخلع عليهم أبراد « الخلود » الموشاة داخل مملكته التى لا مبدأ لها ولا نهاية ، ولا يستطيع جبريل أن يخرج عن حدودها لو طار بقية عمره فى أرجائها . نعم ، لقد صدق المعرى وطه ، فإن « الدهر » أو « الزمن » يسع فى محيطه جبريل والكون والوجود ، فما دام هؤلاء جميعا قد دخلوا « مجرة » العقل الآدمى فقد خضعوا معه على الرغم منهم ومنه لإمرة « الزمن » . فنحن بغير « الزمن » لا نعى شيئاً ولا تصلح عقولنا لشىء . فإن إبرة العقل متصلة « بمغناطيس » الزمن . هكذا خلقنا نحن البشر . وأرجو منك ألا تقولى إن هنالك وجوداً مطلقا خارج « منطقة نفوذ » الزمن



والعقل الآدمى، فإنى أجيبك من فورى ، إن ما يخرج عن منطقة عقلنا وزمننا لا وجود له عندنا ، لأننا لا نستطيع أن نتصوره ، فأنت موجودة عندى لأنك قد دخلت منطقة تصورى . وما دمت داخل تصورى فإنى لا أملك أن أدفع عنك سيطرة « الزمن » الذى يبسط حكمه على رأسى وعلى كل من دخل رأسى من خالدين وهالكين . أرأيت يا سيدتى قوة « الزمن » وجبروته ؟ أما قولك إن « الزمن » وهم أفرزه رؤوسنا الآدمية ، فهو كلام يصدق على كل ما تقع عليه حواسنا من موجودات مادية أو معنوية . فليس هناك فى الواقع حقيقة ولا وهم . إنما كل شىء وليد رؤوسنا وإفراز أدمغتنا . فما أنت يا سيدتى العزيزة ، وما الجبال التى تحيط بى ، وما الكتب التى أقرؤها وما الأصدقاء الذين أحبهم وما أهلى ، وما عملى ، وما مالى إلا إفرازات تخرج من رأسى . فأنت و « الزمن » فى هذا سيان . لا أستطيع أن أسمى أحدكما وهماً والآخر حقيقة .

« أما دفاعك عن « الحب » ، فهو جميل « كالحب » . ولست أنكر مطلقاً أنه أعجبنى وأثر فى نفسى . ما أصدقك إذ تقولين أن لاشىء يستحق منا تحية وداع على الأرض مثل لحظة حب ظفرنا بها ! نعم . . ولكن . . تلك اللحظة ، أين هى ؟ أنستطيع أن نظفر بها فى كل حين ؟

وبعد ، فأرجو أن تغفرى لى هذه المرة أيضاً جفاء هذا الكتاب ، فإنى إنما أردت أن أعيد إليك الثقة فى مولانا « الزمن » ، فما دام هو الذى

ينظم حياتنا فهو ولا ريب الذى يقيم العدل ويرد الحق إلى ذويه .

« واقبلى يا سيدتى المحبوبة خالص شكرى على عطفك الذى تجودين به دائماً علىّ . ولو كنت أرى قلبى جديراً بك لبعثته إليك رسولاً أميناً يقرئك السلام من

أسيرك المخلص

توفيق



المحاكمة

جاء يوم المحاكمة . وعقدت الجلسة فى رأس « الجبل الأبيض » بالقرب من « شامونكس » . واعتلى « القاضى » القمة فى هيبة ووقار . وهو كائن طويل مديد ، لا ظهر له ، ولا يبدو عليه عمر ، له وجهان : أحدهما أسود والثانى أبيض . وقد اتخذ له من « قوس قزح » وساماً يزين صدره الذى كساه الجليد . وعندئذ قصف « الرعد » وهو حاجب الجلسة :

— محكمة !

فنهض الحاضرون رهبة ورعباً قبل أن ينهضوا إجلالاً ، وسقط ضعاف القلوب منهم مغشياً عليهم ، فلم يلتفت إليهم أحد ، حتى أفاقوا من تلقاء أنفسهم صفر الوجوه فوجدوا الناس قد جلسوا ، فجلسو وكأن على رؤوسهم طير الرخ !

وعندئذ هبط من القمة صوت هادئ عميق :

— فتحت الجلسة !

وأشار « القاضى » إلى « الزوابع » فصفرت ومضت ثم عادت حاملة « المتهم » وألقت به على الجليد ثم استأخرت عنه . وعندئذ هبط الصوت العميق :

— أيها المتهم ، قف !

ولكن المتهم لم يسمع شيئاً . فلقد كانت أسنانه تصطك ، وفرائصه

ترتعد ، لا من الخوف وحده ، ولكن من البرد . فهو الساعة على ارتفاع خمسة آلاف متر عن سطح البحر أو يزيد .

ولما رأى « القاضى » أن المتهم لم يبد حراكاً . أشار إلى حاجب الجلسة . فتقدم « الرعد » ودنا من أذن « المتهم » وقصف :

ــ قف ، أيها المتهم ! . .

وكأن لطمة قد أصابت أم رأس « المتهم » فانبطح على الأرض لايحى . ثم ثاب إلى رشده بعد قليل وهو لايذكر من أمره شيئاً . وسمع همساً خلفه فالتفت . فإذا شهرزاد مع حاشيتها وإلى جانبها طه حسين جالسين فى الصف الأول من صفوف المشاهدين وهم يتتبعون ما يقع فى جد وقلق واهتمام . وما علموا أن توفيقاً أحس بهم حتى همسوا إليه مشجعين :

ــ قف ولاتخف ! ذاك حاجب المحكمة !

ــ حاجب . . المحكمة ! . .

همس المتهم بذلك كالمخاطب لنفسه من بين أسنان ما زالت تصطك على الرغم منه : « إذا كان هذا حاجبها فهل يرجى منها خير ؟! » ثم تحامل على نفسه ووقف مترنحاً كالسكران وصاح :

ــ أ . . أ . . أين هو القاضى؟ لاسؤال ولاجواب قبل أن تحضروا إلى معطفى الصوفى . سأموت من البرد قبل صدور الحكم ! . .

فأشار « القاضى » إلى « الحاجب » فتقدم « الرعد » إلى المتهم وقصف :

— أين هو معطفك ؟

فانتفض المتهم انتفاضة كادت تطرحه إلى الأرض . لكنه ثبت والتفت صائحاً :

— النجدة يا أهل المروءة ! أما من حاجب ألطف من هذا ! . . . أيها القاضى ، إذا تركت علىّ حاجبك هذا فإنى لا أضمن حياتى إلى آخر الجلسة ، فألتمس من عدالتك لا تجعل بينى وبينك حاجباً . . ! فإن مثلى وإن لم تكفه الإشارة فهو على كل حال لا يحتاج إلى مثل هذا الترجمان الذى يميتنى ويحيينى فى كل لحظة !

— ولكنى أنا فى حاجة إلى هذا الترجمان . فإن سمعى ثقيل ، لا تصل إليه أصواتكم ولا صخبكم وضجيجكم !

— وكيف تسمعنى الآن أيها القاضى ؟

— أمرت « الريح » أن تجلس طول الجلسة تنقل إلىّ ما يدور فيها من كلام !

— لا بأس بالريح ، فهى على كل حال أرق حاشية وأهون خطباً !

— فليكن ما تريد !

وأشار القاضى إلى « الرعد » أن تنح الآن ، فامتثل ووقف فى آخر المكان ينظر ولا يتكلم . وعاد القاضى إلى المتهم قائلا :

— أين معطفك فنحضره إليك ؟

فسكت المتهم وأخذ يتذكر :

— أين معطفي ؟ ذلك هو المشكل ! أين تركته وأين نسيته ، لقد صحبني في كل مكان . لازمني في مصر وفي السفر وفي الجبل . وحتى في الجحيم بين اللهيب ما تركته وما نسيته ! واليوم وأنا في السماء عند السحاب و بين الجليد أتركه وأنساه وأصعد بدونه ! . .

فتهامست شهرزاد وطه مبتسمين :

— حقًّا لا يحدث هذا إلا من توفيق الحكيم !

وعيل صبر القاضي فقال في شيء من الحدة :

— إنا لم نجتمع في هذا المكان لننظر في قضية معطفك ! ولا إخالك تعتقد أني عاطل لا عمل لي في الوجود غير النظر في التافه من أمورك !

فأطرق المتهم وأرتج عليه . فنهضت شهرزاد قائلة :

— فليأذن سيدي القاضي في أن أدل « الزوابع » على مكان معطفه . إنه في حمام قصري !

— في حمام قصرك ؟ وماذا يصنع في حمام قصرك ! آه . . . نعم . تذكرت !

همس بذلك المتهم . . وطارت « الزوابع » إذ سمعت قول شهرزاد . وعادت في لمح البصر بمعطف توفيق وألقته على منكبيه . وما شعر توفيق بثقل معطفه حتى اطمأن وقال :

— وأين عصاي ؟

فكظم القاضي ما به وقال :

— انتهينا من مسألة المعطف وجاء الآن دور العصا . ماذا يفعل

بالعصا فى حضرتى . . ولاهى تقى برداً ولا حرا ولاتدفع شرًا ولا ضرا !

ـ إنى لا أشعر بأنى أنا حقيقة توفيق الحكيم إلا بمعطفى وعصاى !

ـ هاتوا له ما يريد . إن هذا الإنسان قد أضاع « منى » أكثر مما ينبغى فى غير طائل !

ولم يمض قليل حتى كان المتهم ماثلاً بمعطفه وعصاه بين يدى القضاء مستعدًا لكلمته وأمره . . وتنفس القاضى الصعداء :

ـ أخيراً ! ألك حوائج أخرى أم ننظر فى الموضوع ؟

ـ ننظر فى الموضوع .

ـ حمداً وشكراً ! تقدم أيها المتهم ! ما اسمك ؟

ـ اسمى توفيق الحكيم . .

ـ عمرك ؟

ـ أيها الزمن ألا تعرف عمرى ؟

ـ معذرة ! صدقت ! إنى أعرف عمرك . ومنذا غيرى ينبغى له على الأقل أن يعرف الأعمار ؟! صناعتك !

ـ صناعتى ؟ . . أيهما ؟

ـ أديب وكاتب روائى يختلق الحوادث ويبتدع الأشخاص . . أليس كذلك ؟

ـ عفواً ، سيدى القاضى ، ليست هذه صناعتى الأصلية .

ـ لست أعرف لك غيرها . تلك هى التى ورد ذكرها أمامى فى الأوراق . أديب روائى يختلق الحوادث ويزور الأشخاص . .

ـ يزور ؟ !

ـ أليس الأمر كذلك ، أجب بنعم أو بلا !

وقع المتهم فى حيرة . . وجعل يفكر هنيهة ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ نعم ، إنى كذلك ، ومع ذلك ، فإنى لست كذلك . .

ـ ما هذا الجواب المعقد ! إنى أطلب إليك جواباً واضحاً بسيطاً فى لفظ واحد . أتختلق وتزيف ؟ تلك هى التهمة التى يرميك بها المدعون .

ـ أنا أختلق وأزيف ؟ وأنا أعرف القانون . وكنت رجلاً من رجال القانون ! كلا يا سيدى القاضى ! . .

ـ أنكر المتهم التهمة . اجلس أيها المتهم ، وأصغ إلى أقوال المدعين .

أحضروا الشاهد الأول ! . .

وعندئذ استوى « الحاجب » واقفاً ونشر ورقة فى يده وقصف :

ـ الشاهد الأول : شهريار !

فصفرت « الزوابع » وأقبلت تلقى بشهريار أمام القاضى . وتفرس القاضى فى الشاهد ثم قال :

ـ شهريار .

ـ عمرك؟ كلا هذا من شأنى . . صناعتك ؟

ـ ملك .

ــ فى أى مملكة ؟

ــ فى أى مملكة ! لم يسألنى أحد قبل الساعة هذا السؤال . ولم يخطر لى على بال أن أعرف اسم هذه المملكة؟ لست أدرى . سلوا هذا المتهم !

فالتفت القاضى إلى المتهم ، فوقف :

ــ أيسألنى أنا عن اسم مملكته ؟ وكيف لى أن أعرف ؟ إن كل ما أعلم عن هذا المخلوق أنه ملك . ولست أدرى أين مملكته ، ولا أين موقعها من « خريطة » العالم ؟

فعاد القاضى والتفت إلى الشاهد فاعتدل :

ــ أنا كذلك لست أعرف إلا أنك ملك .

فقال القاضى فى شىء من السخرية :

ــ حسبك هذا . أقسم إنك لاتقول غير الحق .

ــ أقسم .

ــ ما أقوالك ؟

ــ أقوالى : أن هذا المتهم قد قذفنى بالباطل وافترى على كذباً وزوراً واقعة لم تكن ؛ فلقد جعلنى ديوثاً أدخل على شهرزاد فأجد عندها العبد فلا أقتله ولا أشرب من دمه !

فما تمالك المتهم أن وقف وصاح :

ــ كنت تريد أن أجعل منك قاتلاً سفاكاً يشرب الدماء . نعم

لقد أذنبت وأجرمت إليك ، إذ لم أجعلك كما كنت تريد مخلوقاً سخيفاً!

وأراد الملك أن يحتج . ولكن القاضى هدأ من غضبه وأسرع فأمر المتهم بالجلوس والصمت إلى أن يحين وقت الدفاع فيتكلم كما يشاء. وأشار القاضى إلى « الزوابع » فأقصت شهريار وأحضرت الشاهد الثانى قمراً . فسأله القاضى عن اسمه وصناعته ثم عن أقواله . فأجاب الوزير :

ـ أقوالى يا سيدى القاضى : أن هذا المتهم قذفنى وحط من قدري . فلقد جعلنى أقتل نفسى من أجل امرأة ، فى الوقت الذى يخرج فيه العبد من مخدعها وينكشف لى إثمها ودنسها !

فتغير لون شهرزاد ومالت إلى أذن طه تهمس :

ـ لقد أدهشنى الساعة أن يكون ذاك كلام شهريار العظيم ... الذى كان عظيما حقًّا فى آخر أيامه ! ولكن ما قال هذا الشاهد المدعو قمراً الآن أدهى وأمر !! . يا إلهى ما هذه المخلوقات ! ياله من كابوس ! ..

ولم يطق المتهم سكوتاً فنهض صائحًا :

ـ يالخيبة أملى فيك أيها الوزير الجميل ! أنت الذى عشت تعبد مثلك الأعلى النبيل . فلما ذهب عنك ذهبت . لقد انطفأت فى قلبك شمس حياتك يا قمر ، ففيم بقاؤك ، ولكن هذا الشاهد ليس بقمر ، إنما هو فرد من السوقة !

فضاق القاضى بالمتهم .

— قلت لك اجلس ولاتنبس ! . . أحضروا الشاهد الثالث . .

فجيء « بالجلاد » ، وبعد المقدمات المعروفة سأله القاضى عن أقواله :

— أقوالى يا مولاى القاضى : أن هذا المتهم قد نسب إلى زوراً أنى بعت سيفى إلى صاحب الخان . وأنا رجل « موظف » أقدر واجبى وأعلم أن هذا السيف ليس ملكى وإنما هو « عهدة » لايباع ولا يشرى ! .

وعندئذ قام المتهم صائحاً :

— أرجو من عدالة القاضى أن يسأل فى ذلك صاحب الخان وهو لاشك قد حضر مع الشهود !

فالتفت القاضى إلى « الزوابع » :

أحضروا الشاهد الرابع !

فما مرت ثانية حتى كان « أبو ميسور » ماثلاً أمام القاضى فسأله :

— أأنت صاحب الخان ؟

— أجل ، مولاى القاضى !

— هل تعرف هذا الجلاد ؟

— كيف لا ، يامولاى القاضى ، وهو عميلى ومدينى ، واحد المدخنين !

— أكان قد باعك شيئًا بدين عليه ؟

— باعنى سيفه .

وعندئذ صاح المتهم فرحًا :

ـ فليحى العدل ! ظهر الحق وزهق الباطل ! ألا تستحى أيها الجلاد ! ما أكذبك !

فأسكت القاضى المتهم ثم التفت إلى أبى ميسور :

ـ وأنت ما أقوالك ؟

ـ أقوالى وحق رأسك أيها القاضى ! عجبًا ! لست أرى لك رأسًا ولا ذنبًا ! ومع ذلك فهذا ليس بالأمر الذى يعنينى ، وما دمت أنت القاضى فإنى أشكو إليك هذا المتهم ، أين هو ؟ لايشرفنى أن أراه، هذا المتهم يزعم زورًا أنى أدخن القنب حتى يغيب وعيى. هذا باطل أيها القاضى، فإنى وحق رأسك، كلا لا شأن لى برأسك ، فرأسك هو لك. ولست أدرى إن كان رأس إنسان أو رأس حصان . . ولكنه رأس القاضى . . ولكن أين هو رأس القاضى ، عجبًا إن للقاضى رأسين ؟ رأس لاشك فيه الإدانة ورأس فيه البراءة . . وإذا تناطح الرأسان . .

ـ كفى خلطًا ! إنك إلى الساعة غائب الوعى تفوح منك رائحة القنب ! اطردوه! .

ـ فليحى العدل! . .

صه أيها المتهم. لا أريدهنا مظاهرات! الزم الصمت ! أيها الحاجب ! ناد بقية الشهود! . .

فقصف « الرعد » وصفرت « الزوابع » وطارت فى كل مكان؛ ثم عادت تعلن أن بقية الشهود وهم « الساحر » و « زاهدة » قد هربا ولم

يعثر لهما على أثر . وأن شهرزاد و « العبد » حاضران فى الجلسة بين المشاهدين . وعندئذ قامت شهرزاد وأعلنت أمام القاضى والجموع نزولها عن كل حق لها — إن كان لها حق — فى مقاضاة المتهم . وقام « العبد » فتبع أثر مولاته فيما أعلنت . وكانت الشمس قد غابت ، فزال وجه القاضى الأبيض عن المكان ، وظهر وجهه الأسود ، يملؤه « كلف » دقيق من نور متناثر . وأطرق القاضى لحظة ثم قال فى صوت أشد هدوءا وأكثر عمقاً مما كان :

— الدفاع !



الدفاع

وقف المتهم لحظة مضطرباً بين صمت الجموع ووجومهم ، وانتباه شهرزاد والتفات طه حسين وقد أمسك أنفاسه وأصاخ بسمعه .
ثم ارتفع صوت المتهم رويداً رويداً كأنما هو آت من مكان بعيد :
أيها القاضي العادل :
تهمة خطيرة تلك التي رماني بها المدعون ، أو المدعيان ، إذ قد سقط من الحساب اثنان ظهر كذبهما للمحكمة ، وهرب اثنان ضجراً من طول الإجراءات فيما أرى ، وتنازل اثنان كرماً ونبلا من دون ريب ، فلم يصمد في وجهي غير ملك ووزيرا وهذا شرف عظيم !
قبل أن أبدأ دفاعي . أود أن أبدي أسفي لهذه الدعاوى التي أقامها علي، أشخاص يمتون إلي بسبب . إنه لمن المؤلم أن أراني منفرداً بين إخواني الأدباء بهذا الموقف الذي وضعني فيه اليوم هؤلاء الأشخاص المحترمون . وإني لأعجب كلما تذكرت أن غيري من الأدباء لم يلق من أشخاصه ما ألقى من هذا الإكرام . فها هو ذا « هيكل » لم ترفع عليه « زينب » قضية في المحكمة «الشرعية» وهذا « العقاد » لم يقاضه « ابن الرومي » أمام المحكمة « المختلطة » . وهذا « المازني » » ترك الأموات والأشباح وأخرج على مسرح كتاباته أهل بيته وذويه من الأحياء فلم يتذمر أحد منهم . فما بال أشخاصي أنا من دون بقية الخلق هم الذين قد أساءوا الأدب وثاروا وتمردوا ، كأني يوم كتبتهم غمست قلمي في

مداد ممزوج بلعاب الجن الأخضر أو ماء الفلفل الأحمر .

وبعد ، فما هي حقيقة الاتهام ؟ إني قد زورت ولفقت وقذفت إذ جعلت الملك والوزير على صورة لايرضيانها لنفسيهما ؟ إني أترك لعدالة المحكمة تقدير الجميل الذى أسديته إلى هذين المخلوقين بذلك التزوير والتلفيق المزعومين ، إنهما قد مثلا الساعة ورأيناهما مجردين عن ذلك الثوب الذى ألبستهما إياه تلفيقى وتزويرى ، ماذا رأت المحكمة منهما الآن غير ملك جاهل سفاك ووزير تافه صعلوك ، أين ذلك التفكير الذى وضعته فى رأس شهريار فارتفع قليلا عن الأرض ، فلم يحفل « بعبده » شهريار الواقف خلف الأستار بقدر ماحفل بما اختفى وراء عقلها من أسرار . . . ! ! وهذا الوزير . . .

القاضى – (مقاطعا للدفاع) : إنهما قد رفضا هذه الصورة على كل حال . وهى فى نظرهما قبيحة !

الدفاع – (يمضى) : أيها القاضى ! ليس من حق أحد أن يرفض صورة وضعها مبدع لأنها قبيحة أو مليحة ! إن للمبدع أن يظهر أشخاصه على أى وجه يريد ما دام فيها حياة نابضة .

القاضى – وهل من حق المؤلف أن يشوه الأشخاص ؟

الدفاع – وهل من حق الخالق أن يشوه بعض المخلوقات ؟ وهل من حقى أن أطالب خالقى بأن يغير الصورة التى وضعنى عليها ، وأن يبدل أنفى الذى لايعجبنى بأنف آخر ، وطبعى الذى يتعبنى بطبع آخر ؟

القاضى — ولكن رجل الفن مطالب بالكمال !

الدفاع — إن الكمال فى الفن وفى الطبيعة هو خلق الحياة النابضه . ولاشىء غير ذلك .

القاضى — أو يستوى عندك فى الجمال : حياة نابضة كحياة المشلولين والمشوهين فى أجسامهم وعقولهم ، وحياة أخرى كحياة « السبياد » الجميل الجسم ، السليم العقل ، و « هيلين » البديعة الحسن الذكية الفؤاد ؟ !

الدفاع — سيدى القاضى ! إنك تضيق علىّ الخناق وتحاسبنى حسابًا عسيراً .

القاضى — (باسماً) : ألست تريد قضاء « الزمن » ؟ !

الدفاع — (يفكر مليًّا) : نعم ، صدقت ياسيدى . إن الجمال هو كمال الكمال . هو الحياة النابضة الصحيحة المتناسقة المصفاة من عيوب النقص والتشويه ، مرت عليها الطبيعة بيد التجربة والأستاذية على مدى أحقاب الأحقاب ! ولكن . . منذا يزعم أن هذا « الجمال » فى مقدورنا نحن الآدميين فى كل حين ! وهل هو فى مقدور « الطبيعة » فى كل حين ! كم مثلا من أمثلة الجمال الكامل فى « الجسم والقلب والعقل معًا » استطاعت الطبيعة أن تخرجه منذ آدم حتى اليوم ؟ وبأىّ ثمن صنعت تلك الآيات ؟ وبعد كم من التجاريب ؟ أليس الثمن ملايين الملايين من المخلوقات العادية والناقصة والمشوهة على مر الأحقاب والعصور ؟ أليس النقص والتشويه والتكرار تجاريب الطبيعة الفاشلة ؟

إن الطبيعة لتتكبد العناء هى أيضاً فى خلق الجمال ! فهى لاتختلف كثيراً « فيدياس » ، إنه كذلك قد أسقط من فتات الرخام الضائع والتماثيل الناقصة أكواماً على أكوام قبل أن يبرز من بينها آيته الفنية « بالاس » وما لى أفرق بين الطبيعة وفيدياس . كأن الإنسان شيء مستقل عن الطبيعة ! إنه جزء منها . خاضع للقانون الذى يسيرها . وذلك القانون وحده هو الكامل المنزه ، لانقص فيه ولا تقصير ، وهو الذى دبر لنا وأراد هذا القصور . فإذا كان الكمال أو الجمال نادراً فى الطبيعة على قوتها وعظمتها ، فإن العمل الفنى الكامل هو عند البشر أقل وأقدر .

ولأتحدثن الآن عن نفسى قليلا ، وأنا بين « يدى » الزمن ، فأقول إنى ما زعمت يوماً ولن أزعم أنى صنعت من هؤلاء الأشخاص « المدعين » شيئاً يقرب كثيرا أو قليلا من الجمال الفنى . وإن كنت صنعت ذلك لما عرفت ، فإن صانع الجمال لايراه . ومن دنا من قمة الكمال أصابه الدوار ففقد شيئاً من إدراكه لما يصنع ولقيمة ما يصنع ، وأصبح شأنه شأن أولئك الصوفيين الذين يقفون بأعتاب « الله » بعد صعود طويل وجهد شاق ، فيغمرهم ضباب النشوة ، فإذا هم لايرون شيئاً ولا يميزون بعقولهم شيئاً .

ولما كنت الآن على ثقة بأنى لا أشعر بدوار ولا بضباب ، فإنى ولاجدال بعيد عن قمة « الكمال » . وكل ما أزعم لك ياسيدى القاضى فى شأن عملى هذا ، أنى كنت دائماً حسن النية ، سليم الطوية ، لا أمل السير

بوسائلى الضعيفة ، صاعداً فى ذلك الطريق الوعر الطويل المؤدى إلى هيكل « الجمال » العظيم ، دون أن أطمع يوماً فى رؤيته ، ولو عن كثب . إنما أقضى حياتى أمشى وأتعثر فى أشواك هذا السبيل إلى النهاية . وعزائى الوحيد أنى أعيش فى طريق « الجمال » وأقضى نحبى فيه . فإذا رفق رب « الهيكل » بى ، وألفانى يوماً خليقاً أن يضع على قبرى زهرة من حديقته ، فذاك كل جزائى ، وغاية ما أطمع فيه . . . وأخيراً ياسيدى القاضى . لست أملك إلا أن أعهد إليك باسمى وشرفى وأمرى فاحكم بما ترى . وأنت إذا حكمت فإنك تحكم بالحق والعدل . ولست أخاف وجهيك. فإن فيك أيها « الزمن » « سواد » الدهماء ، وفيك « نور » العلماء . وبهذا الحكم المزدوج على الأشياء لايفلت حق من مصفاتك .

* * *

جلس المتهم وقد خيم الصمت العميق فى ذلك الليل الساجى على الجموع الساهمة . وأطرق القاضى ملياً ، ثم رفع رأسه :

ـ النطق بالحكم عند الفجر . وليفرج فوراً عن المتهم بالضمان الشخصى !

فقام « الحاجب » ونادى فى قفصه :

ـ من يضمن المتهم ؟

فنهضت شهرزاد صائحة :

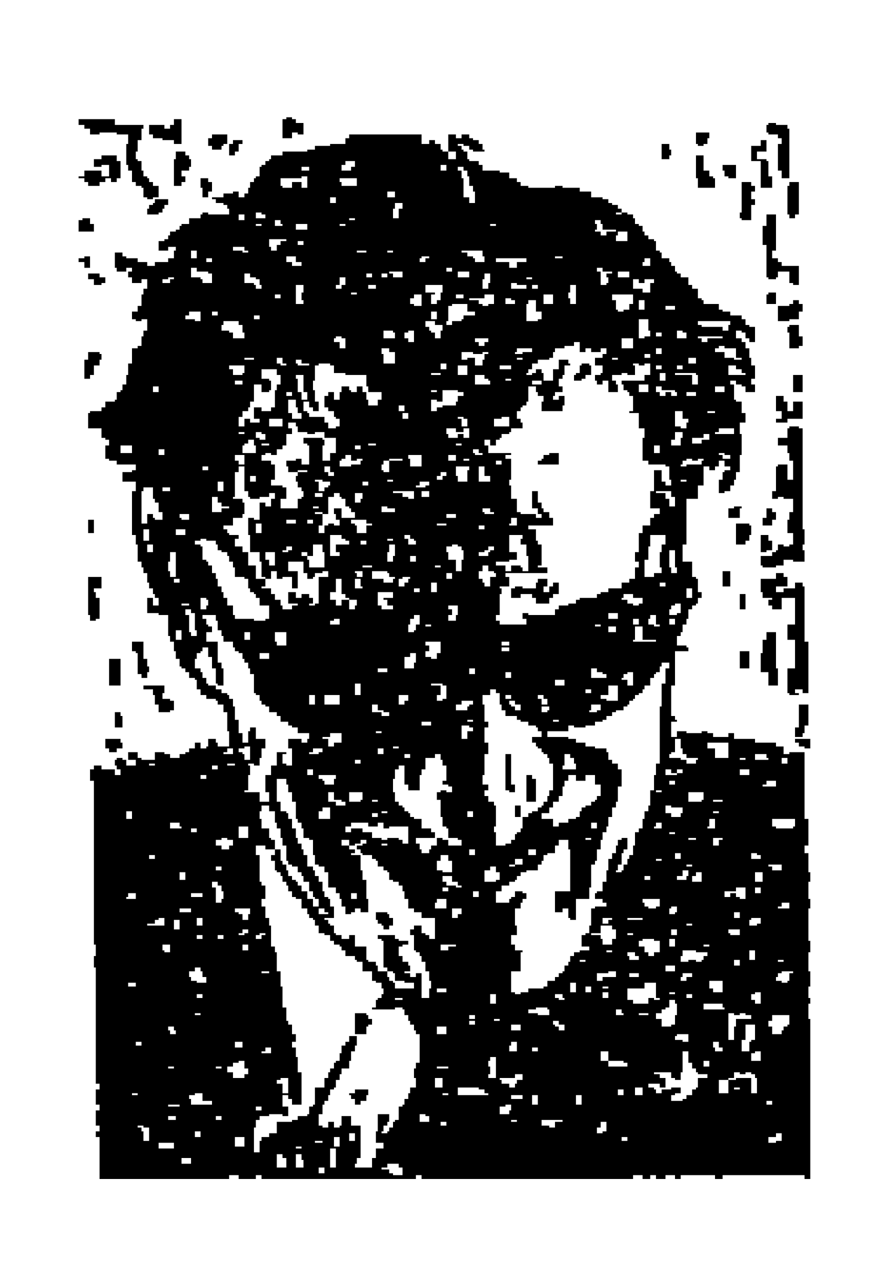
ـ أنا أضمنه وأحفظه فى قصرى حتى الفجر .

فتحرك « القاضى » فى جلال رهيب وقال ملتفتاً إلى شهرزاد :

ـ لاتقبل المحكمة ضمانك ، لأنها لا تأمنك عليه .

فبهتت شهرزاد ووجم الحاضرون ، ولكن القاضى لم يطل صمته بل قال مخاطباً شهرزاد :

ـ ولأنك متهمة مثله .



غضب شہرزاد

قلت وقد اتجهت إلى القاضى واثقاً بأنه سيرضى بما أقول: فأنا أكفله إن أذنت يا سيدى . قال القاضى فى لهجة حلوة مرة فيها الحنان والسخرية معاً : او أمنتك على نفسك لأمنتك عليه . فسقط فى يدى ، واستحييت من أن أفجأ بما فجئت به شهرزاد ، وانتظرت فى الوقت نفسه أن أسمع من توجيه التهمة إلى وأمرى بالتهيؤ للدفاع . ولكن صمت القاضى اتصل حتى قطعه صوت مخيف اضطربت له الأرض وامتلأ به الجو ، وأوشك الجبل أن يتصدع منه فرقاً و رعباً وتهالك له توفيق ففارقته قواه وسقطت من يده عصاه وخر كأنه مغشى عليه ، وإذا هو الحاجب يقول فى قصف الرعد كله ، إلى يا مولاى فأنا زعيم به حتى يتصرم الليل . ثم ثاب الهدوء وثابت معه إلى المتهم قوته وعاد إليه رشده فسأله القاضى :

أتقبل هذا الكفيل ؟ قال مضطرباً متهالكاً : على ألا يسمعنى صوته ، فإنى أخشى ألا أعود إلى أهلي كما فارقتهم سميعاً . قال الحاجب فى صوته القاصف : لا بأس عليك . قال المتهم متهالكاً متهالكا : أو بأس أشد من هذا البأس ؟

وصعدت فى ذلك الوقت من أدنى الجبل سحابة تسعى فى هدوء ولين ، فجعلت تغمر المتهم قليلاً قليلاً وهو يضطرب اضطراباً عنيفا ويصيح صياحاً شديداً يريد أن يخلص منها فلا يجد إلى ذلك سبيلا ،

وما هى إلا لحظة قصيرة حتى أخذته من جميع أقطاره ، فإذا شخصه يخفى وصوته ينقطع والسحابة تمضى مصعدة أمامها فى مثل ما أقبلت به من الهدوء والوقار .

والتفت فلم أجد حولى إلا شهرزاد وغلامها الأسود وإلا صاحبى ، وقد أطبق على المكان صمت ليس أقل عمقاً ولا كثافة من هذا الليل الذى غمر كل شىء . على أن ألفاظ شهرزاد كانت تخترق هذا الصمت العميق كما كانت أشعة النجوم تنفذ من هذا الليل الكثيف ، وكانت شهرزاد مغضبة أشد الغضب مغيظة أحد الغيظ ، ساخطة على هذا القاضى الذى لم يكفه أن رد كفالتها فى غلظة وعنف حتى اجترأ عليها وتجاوز حقه فيها ، وزعم أنها متهمة كتوفيق يجب أن تدافع عن نفسها كما دافع هو عن نفسه ، وكانت تقول فى صوتها الفضى الجميل : من هذا الذى يجرؤ على أن يتهمنى أو من هذا الذى يملك أن يقفنى أمام القضاء ؟ ومن هذا الذى يستطيع أن يكرهنى على ما لا أريد ، ثم ترسل فى الجو قهقهة عذبة متصلة وهى تقول : لم يبق إلا أن تدافع شهرزاد عن نفسها وتقف من القضاء موقف المجرمة وهى التى أخذت الناس بالجد والعبث ، وعلمتهم الاتهام والدفاع . سيعلم هذا القاضى كيف أعصيه وكيف أزدريه وكيف أمتنع عليه ، ثم تلفتت إلىّ وهى تقول فى شىء من الحنق تكظمه وتخفف من حدته :

— أرأيت إلى مشورتك يا سيدى كيف تعرضنى لما لم أتعرض له قط !؟

قلت فى أناة وهدوء :

— إن شخصك الخالد ياسيدتى قد يكون بمأمن من هذا البرد المهلك الذى لانقوى نحن على احتماله ، فإن شئت أن ترديه عنا أو تحمينا منا قبل أن نأخذ فى هذا الجدال الذى أظن أنه سيكون شاقاً طويلا .

قالت خجلة متضاحكة :

— لقد أصبت . ما أدرى كيف ذهب عنى هذا ، ولم تكد لتفت إلى غلامها الأسود حتى تغير من حولنا كل شىء . وإذا نحن فى غرفتها الهادئة الجميلة من قصرها المسحور ، وإذا هى مستلقية بين وسائدها ، وإذا الخدم يسعون بين أيدينا بما يرد إلينا القوة والنشاط .

قالت شهر زاد :

— الآن ياسيدى وقد أتيح لك الأمن والدفء والهدوء تستطيع فيما أظن أن تتحدث إلى برأيك فى هذه الجراءة التى ما كنت لأتعرض لها لولا أنى لقيتك وقبلت رأيك فى أمر صاحبنا المسكين .

قلت : مهلا ، أزيلى قبل كل شىء من بيننا هذه الخصومة التى تخلقينها وتجنين بها على ، فإنها خليقة أن تصرفنا عما يجب من تدبير أمرك . وأنت تعلمين أن الزمن لايذعن لما نريد ، وأنه كثير التقلب والجموح ، يطيل الليل إن أراد ويقصره إن أحب ، إنما هى حركة منه يدفع بها النجوم دفعاً فإذا الليل ينجلى ، أو سكون منه يمسك به النجوم فى الجو فإذا الليل ثابت مقيم . وما أدرى أراغب هو فى تعجيل القضاء فيقصر الليل أم راغب هو فى الإبطاء به فيمسك أستاره أن

تنكشف ويمنع ظلمته أن تزول .

قالت وقد رفعت كتفيها الجميلتين وأشاعت فى الغرفة ضحكة ساحرة ساخرة : ما أشد ما تخاف الزمان ، وما أعظم ما تكبره ، وما أكثر ما تحسب له الحساب . هون عليك ، إن أمره أيسر مما تظن ، وأن تقلبه أدنى إلى العبث منه إلى الجد ، وأنه يستطيع أن يتهم ، ويستطيع أن يقضى فلا يغير اتهامه شيئاً ولا يحدث قضاؤه جديداً . إنما هو كائن مغرور ، قيل له إنه قوى فظن بنفسه القوة ، وخيل إليه أنه عظيم فانتحل لنفسه العظمة ، بل خيل إليه أنه موجود فأثبت لنفسه الوجود .

قلت وقد نهضت يظهر على وجهى الغضب ويضطرب فى قلبى الخوف :

— سيدتى ، إن كنت مصرة على المضى فى هذا الحديث فدعينى أنصرف ؛ فإنى لا أحب مخاصمة الزمن ولا أقدر عليها . وإنك لتخدعين نفسك وتكلفينها أكثر مما تطيق ، فقد قبلت الاحتكام إلى هذا القاضى . أترين أنك كنت لاعبة ؟ ثم ما يغضبك من اتهامه إياك وأنت قد قبلت حكمه وسعيت إلى مجلسه ، ومازلت تنتظرين قضاءه وتخافين فى أعماق نفسك أن يكون قاسياً على صديقنا البائس ؟

قالت فى رفق :

— عد إلى مجلسك ياسيدى فما دفعنى إلى ما تكره إلا ما أجد فى نفسى من الحفيظة والموجدة . وما كنت أقدر أن أهان وأتهم جزاء على



ما قبلت من الاحتكام إلى الزمن والرضى بقضائه بين توفيق وتلك الأشباح .

قلت : بل جزاء على عبثك به واستطالتك عليه فيما كتبت إلى أسيرك الذى أخذ منك وأنت كارهة .

قالت : ومهما يكن من شيء فأنت أصل الخصومة التى أخذت نفسى تضيق بها على قلة ما تضيق نفسى بالأشياء .

قلت : فهذا هو التجنى الذى لا أطيقه ولا أرضاه ، وإنك لتعلمين أنى ما سعيت إليك إلا بعد أن دعوتنى ، وما اهتديت إلى قصرك هذا إلا حين دللتنى عليه ، بل حملتنى إليه حملاً واختطفتنى إليه اختطافاً ، أفتعقدين الأمر وتخلقين المشكلات ، ثم تلقين تبعة ماتفعلين على الأبرياء والآمنين الذين أقبلوا يصطافون ، فنصبت لهم من الشباك والأشراك ما ورطهم فى هذه القصة المعقدة التى لايعرفون لأنفسهم منها مخرجا ؟

* * *

سمعت شهرزاد هذا الحديث هادئة ، ثم فكرت فيه مغرقة فى التفكير ، ثم رفعت رأسها إلى وهى تقول : ربما كان هذا كله حقاً ، ولكن الأمر ما زال أيسر مما تظن ، فأنت واثق بأن القاضى سيعدل فى أمر صاحبك ، وإذن فستذهب إلى مجلس القضاء وستسمع الحكم ، فإذا برئ صاحبك عدت معه آمنين إلى حيث تستأنفان اصطيافكما كأن لم تلقيا شهرزاد ولم تعرفا القصر المسحور .

قلت ساخراً : ما أيسر ما تقولين ذلك ، كأنك تجهلين أن لقاءك فتنة وأن قصرك سحر ، وأن من دنا منك لا يستطيع أن يطيل النأى عنك وأن من خرج من قصرك لا يستطيع أن يسلو عن الرجوع إليه ! هل لك أن تدعى هذا الدل وتعرضى عن هذا التيه ، حتى نفرغ من هذه القصة التى طالت واشتد تعقدها ؟

قالت : صدقنى أنى لأبعد مما تظن عن الدل والتيه ، ولكن أكبر نفسى وأنفسكم أيضاً من أن أخضع لسلطان وإن كان سلطان الدهر ، ومن أن أقبل اتهاماً أو أتهيأ لدفاع .

قلت : ومع ذلك فأنت متهمة ولابد من أن تدافعى عن نفسك .

قالت : كلا إن لى عن ذلك مندوحة ، فأنت تعلم أن هناك أستاراً يكفى أن ترفع وأن تسدل بعد أن أجوزها ، وإذا أنا بمأمن من كل عادية لا يبلغنى شىء ولا يصل إلى أحد وإن كان الزمان .

قلت : نعم ومن وراء هذه الأستار كنت تريدين أن تلقى توفيقاً .

قالت : كنت أريد أن أحفظه .

قلت : فإنك لا تجهلين أن ما وراء هذه الأستار يسمى الموت بالقياس إلينا ويسمى النسيان بالقياس إليك . أفترضين أن تسدلى أستار النسيان بينك وبين الأحياء ؟

قالت : لقد بلوت الأحياء حتى ضقت بهم ، وما أكره أن أستريح منهم دهراً ، فلينسونى ولأنسهم ، وما أظن أنى سأشقى بهذا كما يشقون .

قلت : ما كنت أعرف فيك هذه القسوة ، إنك لتعلمين أنك عزاء الأحباء وسلوتهم ، وأنك رحمة البائسين ونجاة الهالكين منهم . ومع ذلك فلن يخلى الزمن بينك وبين ما تريدين للأحياء من هذه الحياة الخشنة الجافة التي يملؤها الجحيم والعذاب المقيم .

قالت وقد نهضت مغضبة : الزمن أيضاً ؟ فأنا إذن مثلكم أمة له، مذعنة لسلطانه لا أستطيع منه فراراً .

قلت :

ولو طار جبريل بقية عمره

قالت وهي لاتكاد تملك نفسها :

من الدهر ما اسطاع الخروج من الدهر

سخف هذى به شاعر من شعرائكم ظنه وظننتموه فلسفة ، ولم تعرفوا أنه الهراء الذى ليس وراءه شيء . سترى يا سيدى أأستطيع الخروج من الدهر أم لا أستطيع . ثم دقت يداً بيد فأقبل غلام أسود فقالت له : سترعى هذا السيد حتى يفرغ صاحبه من قضيته ثم تبلغهما مأمنهما ثم تلحق بي وراء الأستار .

قال الغلام : الأستار ياسيدتى ؟ إنها مأخوذة علينا .

قالت : من أخذها ؟

قال : جنود القاضى ، إنهم يقومون دونها منذ وجه إليك ما وجه من حديث .

قالت : فستنتظرنى إذن فى القصر حتى أعود .

قال : تعودين من أين ياسيدتى؟

قالت : من وراء الأستار . ألست قد زعمت أن الطريق مأخوذ عليكم ؟

قال : وعليك أيضاً يا سيدتى !

هنالك ثار ثائرها فنهضت ولطمت خد العبد . وإذا هو يجثو بين يديها مستغفراً ، ولكنها مضت أمامه لاتلوى على شىء وتبعها العبد مستخذياً خجلا . ولبثت فى هذه الغرفة مضطرباً بين الحيرة والدهش والغضب ، لولا أن صاحبى أقبل يهمس فى أذنى لقد انتصف الليل . ولم أكد أسمع هذه الجملة حتى انجلت عنى غمرة هذه القصة كلها وذكرت الفندق ومن خلفت فيه ، ونهضت عجلا قلقاً أسأل صاحبى ، ومن لنا بالعودة وكيف الطريق إلى الفندق ؟ وماذا عسى أن يظن بنا من الظنون ؟

ولم يكد صاحبى يهم بالجواب حتى أقبلت شهرزاد شاحبة غاضبة لاتملك نفسها من الغضب والغيظ فتلقى على صاحبى نظرة يطير لها لبه ، فيرجع أدراجه مسرعاً ، ثم تتحول إلىّ قائلة وقد تجاوز السخط بها حده :

— إنك تفكر فى العودة إلى أهلك . كلا ياسيدى ، يجب أن تعلم أنى أسيرة فى هذا القصر ، أسيرة قاضيك الذى اخترته ووثقت به ، فلتكن أنت أسيرى ولن يخلى بينك وبين الحرية حتى يخلى بينى وبين النسيان !

حكم الزمان

فلما تقضى الليـــل إلا أقله

وكادت توالى نجمـــه تتغور

يممنا مجلس القضاء ، فكنا السابقين إليه ، ولبثنا لحظات مأخوذين يبهرنا هذا الجلال الذى لا يرقى إليه الوصف ، جلال الصمت قد امتدت أرجاؤه حتى طبقت الجو كله من حولنا ، لاتشقه إلا هذه الموسيقى الضئيلة المتهالكة التى كانت تضطرب فيه اضطراباً متصلا حلواً ، فيه أمن للقلوب ولذة للنفوس ، والتى كانت تصدر عن هذه الحشرات الضئيلة المنبثة المستخفية فى ثنايا ذلك العشب الكثيف . وجلال هذه الظلمة التى كانت تزرع لكثافتها وامتدادها من كل نحو وفى كل وجه ، لاتشقها إلا أشعة ضئيلة متفانية ، ملائمة لتلك الموسيقى الضئيلة المتهالكة ، كانت تصدر من هذه النجوم البعيدة التى أخذت تجد فى الهرب ، كأنما كانت تريد أن تبلغ مأمنها قبل أن يدركها ضوء الصباح . وكانت نفوسنا تجد فى أعماقها شعوراً قوياً بجمال حزين مغرق فى الحزن ، كأنه صورة لهذا الكون الذى كان يحيط بنا وبغيرنا ، والذى كان يأتلف من مزاجين مختلفين أشد الاختلاف ، ظلمة كثيفة قد شاع فيها صمت عميق وأصوات نحيلة تصعد من الأرض فتلقاها فى الجو أشعة ضئيلة تهبط من السماء . ومع أنا كنا قد افترقنا مختصمين أو كالمختصمين منذ ساعات قصار ، فقد أحسست نفسى تدنو من

نفس شهرزاد . وما أرى إلا أنها كانت تجد مثل ما أجد ، وإذا يدانا تلتقيان ، وإذا هى تسألنى فى صوت لم يكن أقل تحولاً من بعض هذه الأصوات التى كانت تضطرب فى الجو ، ما رأيك فى هذه الموسيقى؟ أليست باهرة للعقول ساحرة للقلوب ، منسية للخطوب والأحزان ؟

وأهم أن أجيبها ، ولكن يدها اللطيفة تضغط يدى الخشنة كأنها أنكرت صوتها فهى لاتريد أن تسمع صوتى ، وكأنها تؤثر ألا يأخذ الحديث بيننا طريق الألسنة والأسماع ، بل طريقاً أخرى هى أيسر وأقرب ، وهى طريق النفوس حين تتحدث إلى النفوس فى غير صوت مسموع أو جرس محسوس .

* * *

وما أدرى ألبثنا كذلك وقتاً طويلا أو قصيراً ، ولكننا نشعر فجأة كأنا انتزعنا فى عنف من عالم الغيب ورددنا فى قوة إلى عالم الشهادة . وهذه سحابة تسعى فى وقار وأناة كأنما تنزلق على الجبل حتى إذا جازت هذا المكان الذى كنا نقيم فيه لم تقف ولم تتمهل ، وإنما مضت فى طريقها منحدرة ولكنها تنحسر فى لطف وظرف عن شخص نجده ماثلا أمامنا ، فإذا تبيناه عرفناه وإذا هو المتهم ؛ عليه معطفه وفى يده عصاه . وأنت تستطيع أن تسأله عن ليلته تلك التى قضاها ضيفاً على السحاب ، فقد حدثنا عنها حديثاً ظريفا طريفاً شائقا رائقاً ما أريد أن أسوقه إليك ، لأنى أقدر حقوق الأدباء فى إذاعة ما يعرض لهم من الأحداث ، وما توحى إليهم به الخطوب ، ولا سيما فى

هذه الأيام التى اشتدت فيها مطالبة الأدباء وأهل الفن بحماية حقوق المؤلفين . وما أظن أن صديقنا يبخل عليك بهذا الحديث ؛ فقد سمعته يتحدث إلى نفسه — وما أكثر ما يتحدث صديقنا إلى نفسه فيسمع الناس — بأنه خليق أن يذيع هذه القصة فى كتاب . وأخذت أشخاص مختلفة متباينة تبلغ هذا المكان ، منها مايصعد ومنها مايهبط ، ومنها مايأتى عن يمين ومنها ما يأتى عن شمال ، وكل صامت لا يسمع له صوت ، وكل هادئ لاتحس له حركة . ثم يضطرب الجو ويهتز الجبل وتمتلئ النفوس مهابة ووقاراً ؛ فقد قصف الحاجب العنيف بأن القاضى قد أخذ مكانه من مجلس القضاء .

ثم يمتلئ الجو من حولنا بصوت رقيق رفيق يدعو شهرزاد ويتهمها بأنها أهانت القاضى باللفظ والكتابة ، ويسألها أن ترد عن نفسها هذه التهمة إن عرفت إلى ذلك سبيلا .

فتقف شهرزاد ولا تقول إلا ألفاظاً قليلة ، ولكنها قاسية بما كان يملؤها من سخرية ويترقرق فيها من مزاح ، ولله ذلك الصوت ما كان أعذبه وأجمل موقعه من القلوب حين كان يذيع فى ذلك الجو الرهيب نغماته الساحرة التى كانت تشيع فيه شيوع الكهرباء فتسحر لها النفوس ، وتسرى لها فى الأجسام رعدة لذيذة لاتعقب أذى ولا ألماً .

قالت شهرزاد :

— لا أقف هذا الموقف لأدافع عن نفسى ، فلست أعرف لأحد الحق فى أن يتهمنى بإثم مهما يكن . وأنا الحرية كلها ، والحرية التى

تشيع النشاط فى العقول وتذيع الحياة فى القلوب وتبعث الحرارة فى العواطف والمشاعر والأهواء . أنا الحرية الخالصة التى لاتعرف حدًّا ولا تنتهى إلى غاية ولا أمد ، ولا ترجو لشىء ولا لأحد وقاراً . أنا الحرية الطاغية التى يظلم كل من يحاول أن يحد من طغيانها ويبغى كل من يحاول أن يكبح من جماحها ، لأن نظام الحياة ، بل نظام الكون يريدها على أنها تكون طاغية جامحة لاتذعن لقوة ولاتؤمن لسلطان ، لا أقف هذا الموقف لأتلقى اتهاماً ؛ لأنى فوق الاتهام ، ولا ألقى دفاعاً لأنى فوق الدفاع . وإنما أقف لأرد هذا القاضى إلى رشاده وأعيد إليه فضلاً من صوابه ، وأنعى إليه نفسه إن مضى فى غروره أو أسرف فى غلواته ، فظن أنه يقدر على الحرية ويسيطر على شهرزاد . لقد أصاب المتنبى حين قال منذ ألف سنة . . .

قال توفيق مقاطعاً : وأنت أيضاً قد أدركتك عدوى المتنبى ؟

ولكنه لم يمض فى حديثه ، فقد قصف الرعد قصفة ردته إلى السكوت :

ومضت شهرزاد فى حديثها عن إصابة المتنبى حين قال منذ ألف عام :

أتى الزمـــان بنوه فى شبيبته

فسرهم وأتيناه عـــلى الهـــرم

قالت : وكنا نحسب أن ألف عام لاتعدل يوماً بالقياس إلى هذا القاضى . وأنه يستطيع أن يهرم على مهل ويشيخ فى أناة ، دون أن ينتهى إلى خرف ويفارقه حلم أو يذهب عنه صواب ، وكنا

نظن أن آلافاً وآلافاً من السنين ستمضى قبل أن نحتاج إلى أن ننبهه بين حين وحين أنه أخطأ فى الحكم أو جار عن قصد السبيل . وكنت أتهيأ لأكون منه مكان تلك الفتاة الأعرابية التى كانت تقرع لأبيها العصى تنبهه أنه جار فى الحكم أو حاد عن القصد ،ولكن قاضينا أسرع إلى الهرم وأسرع الهرم إليه حتى تجاوز كل حساب ، وما كان ينبغى لى أن أجهل ذلك أو أجادل نفسى فيه وأنا أرى بوادره تشيع فى أقطار الأرض وتفسد على الناس حياتهم فى غير بيئة ، فإذا الحرية تضطهد ، وإذا آثارها تصادر ، وإذا العقل ينفى من الأرض . وإذا الأقلام والألسنة تخضع بألوان القهر والمراقبة والتضييق. وإذا رسلى يعودون إلى يائسين بائسين ، يشكون زهد الناس فيهم وفيما يحملون إليهم من ثمرات الحرية التى تذيع الخصب فى العقل والشعور . كنت أظن أنها أزمة تأتى الناس من إسرافهم فى الحضارة وتعرضهم لأخطارها وأمراضها التى تعرض وتزول ، فإذا هى أزمة تأتيهم من أبيهم الزمان الذى فارقه الشباب وتصرمت عنه الكهولة القوية وأدركته الشيخوخة وما يتبعها من أعراض الفناء والانحلال ، إلا أن أكون مخطئة وأن يكون هذا الشيخ الوقور مريضاً ألم به بعض العلة . وإذن فأنا كفيلة بعيادته والقيام على تمريضه والطب لما يلح عليه من الداء .

قال القاضى فى صوته الهادئ الشائع العريض :

— حسبك ياشهرزاد فقد استنار القاضى .

ثم دعا المتهم وسأله :

— ألا تريد أن تزيد على ما قلت شيئا ؟

قال توفيق وهو يرتعش ارتعاشاً عنيفا :

— لا يا سيدى ، ولكنى أتوسل إليك ألا تحملنى من تبعات شهرزاد قليلاً أو كثيرا ؛ فإنى أراها أسرفت كثيراً ، فليكن إسرافها على نفسها لا علىّ .

قالت شهرزاد وقد التفتت إليه ضاحكة :

ويحك ! وكيف خنتنى قبل أن يصيح الديك ؟

ثم غمر المجلس صمت عميق لم يتصل إلا لحظات قصار ، وإذا نحن نسمع صوتاً هادئاً عذباً يتلو علينا الحكم ، ولكننا لا نتبين من أين يبلغنا هذا الصوت .

قال الصوت : والآن وقد سمعنا ادعاء المدعين وسماع المتهم الأول ، ولاحظنا اعتزال من اعتزل وعدول من عدل عن الاتهام ، نقرر أن من حق الأديب أن ينشئ أشخاصه كما يريد هو لا كما يريدون هم ، بل إن من الحق على الأديب أن يتلقى أشخاصه كما يؤديهم إليه فنه ، لا يغير من صورهم التى تلقاهم عليها ولا يبدل ، ولو حاول ذلك لما استطاعه ولما وجد إليه سبيلا . ولمن شاء أن ينكر عليه أو على فنه هذه الصورة كلها أو بعضها ، وأن يعيب عليه فنه أو على فنه ما يكون فيها من ضعف أو نقص أو تشويه ، وما ينبغى لهذه الأشخاص نفسها أن تثور بمنشئها أو تمكر به أو تكيد له أو تتألب عليه ، أو تبغى له سوءاً أو تستنزل عليه عقاباً . فإن فعلت فهى طاغية يجب أن ترد عن طغيانها ، وباغية

يجب أن تصد عن بغيها ، وجامحة يجب أن يكبح جماحها ، ومنشئها وحده هو القادر على ذلك ، وسبيله إليه ترقية فنه وتجديده ، واصطناع الأناة والدقة والإتقان فى التصوير والتعبير جميعا . ولما كان المتهم قد أعلن تواضعه واعترف بقصوره وسلم بأنه فى حاجة إلى أن يسعى ويطيل السعى ، وإلى أن يجد ويمعن فى الجد لا ليبلغ الكمال، بل ليدنو منه، ولما كنا نقدر للمتهم تواضعه وطموحه إلى الكمال واعترافه ببعد الأمد أمامه . ولما كنا نحرص على أن نمنحه المعونة على ما يريد من الرقى الفنى ، فقد قضينا أولا بإسقاط دعوى المدعين وتبرئة المتهم مما وجه إليه، ثانيا بنفيه عن سالنش وعن الأرض الفرنسية كلها شهراً وإرساله إلى سالزبورج حيث الفصل الموسيقى وحيث يستطيع أن يجد من جمال الفن ما يدنيه خطوة أو خطوتين من الكمال .

* * *

ثم انقطع الصوت لحظة أتاحت لتوفيق أن يدفع من صدره آهة عميقة تصور ابتهاجه بما حط عنه من ثقل وما أزيل عنه من حرج ، وما مهد له من سبب لترك سالنش وسمكها الذى لم يصطده ، إلى سالزبورج وموسيقاها الرائعة الحاوة معا . ولكن الصوت يعود فيملأ علينا الجو من جميع نواحيه قائلا :أما المتهمة الثانية فبعد أن سمعنا دفاعها الذى تزعم أنه نعى علينا وتأديب لنا،نقرر أن من حقها أن تستمتع بطبيعتها التى هى الحرية الخالصة ، ولكن فى غير إسراف ولا جموح ، لأن الإسراف فى الحرية قتل لها واعتداءعليها . ومن حيث

إنها قد تجاوزت الحد وجارت عن القصد واستطالت على السلطان ، بعد أن اطمأنت إليه ، وثارت به بعد أن اعتمدت عليه فى إقرار العدل . ومن حيث إنها بهذه السيرة تؤذى نفسها ، وتؤذى الذين يتبعونها من رسلها الخالدين وأشياعها الهالكين ، ومن حيث إنا نحرص على الحرية ونرفق بها من أن نخلى بينها وبين هذا الطغيان الخطر ، ومن حيث إنا مع ذلك نقدر حاجة الحرية إلى أن تمد لها الأسباب ولا يشتد عليها التضييق . فقد قضينا بأن يلزمها الأرق المضنى الذى تعانيه إلى آخر الصيف .

هنا نهضت مندفعاً فى شىء من العنف غير قليل قائلاً فى صوت لم أملك تهدئته ولا تنظيمه ، إذن فلن تأرق وحدها ما بقيت قريباً من القصر المسحور .

قال توفيق فى صوت المنكر الدهش :

— ما رأيت مثلك رجلاً يعترف بالسلطان ثم يتحداه ويخرج عليه !

والتفتنا فإذا كل شىء قد عاد إلى هيئته قبل أن ينعقد مجلس القضاء ، ظلمة مطبقة تضطرب فيها أشعة النجوم المنهزمة وصمت عميق تتردد فيه أصوات الحشرات المتغنية . وتوفيق حائر الطرف يهز رأسه عجباً ودهشاً واستغراباً ، ولسانه يتردد فى فمه :

— حقاً لا أدرى أين أنا وماذا يراد بى !

وشهرزاد تقول فى صوتها العذب :

— أنت على قمة الجبل الذى طالما تمنيت أن تصعد فيه ،

،وطالما غرك به الغرور ، فظننت أنك تستطيع أن تبلغ قمته ثم تنتهى إلى حضيضه فى ساعات ، ولا يراد بك إلا ما تحب لنفسك وما يحب لك الزمن من الاستماع للموسيقى فى سالزبورج.

قال توفيق : ولكن كيف السبيل إلى سالنش لأركب القطار ؟

قالت شهر زاد : لا بأس عليك ، سنبلغك مأمنك ، وإن خنتنا قبل أن يصيح الديك .

وهنا أراد توفيق أن يعتذر ، ولكنها أخذت عليه طريق الاعتذار قائلة له : بل أنا المعتذرة إليكما ، فقد كلفتكما أهوالاً وحملتكما أثقالاً وضيعت عليكما شهراً من أشهر الصيف .

قلت : لم تضيعى علينا شيئاً ياسيدتى ، بل رفهت علينا وأرحتنا من سخف الحياة بما فيها من جد الأمر وهزله .

قالت : من يدرى ، لعلك لم تخطئ ، ولعل ما فى هذه القصة من سخف لا يلائم ما ألف الناس من سخف الحياة الجادة والهازلة أن يسلى غيركما من الناس عن أثقال الدهر وهموم الحياة ، فما أظن أن الناس تعودوا عندكم أن يروا أديبين يعبثان بنفسهما وبالأدب . . أذيعا هذا اللهو إن شئتما ؛ فمن يدرى ، لعل اللغو خير ما فى الحياة .

وأدرك شهرزاد الصباح

فسكتت عن الكلام المباح .

سلسلة (اقرأ)

الكتب التى نشرت فيها منذ صدورها فى يناير ١٩٤٣ حتى الآن

القصة

١ أحلام شهر زاد (د. طه حسين)
٦ شاعر ملك (على الجارم)
١٢ سنوحى (د. محمد عوض محمد)
١٤ من يوميات فتاة عصرية (حسين شوقى)
١٨ قنديل أم هاشم (يحيى حقى)
١٩ سيدة القصور (على الجارم)
٢٢ جحا فى جانبولاد (محمد فريد أبو حديد)
٣٠ قطر الندى (محمد سعيد العريان)
٣٢ الشيخ قرير العين (كرم ملحم كرم)
٣٤ فارس بنى حمدان : أبو فراس الحمدانى (على الجارم)
٤٣ عنترة بن شداد (محمد فريد أبو حديد)
٥١ الشاعر الطموح : المتنبى (على الجارم)
٥٨ خاتمة المطاف (على الجارم)
٦٠ شجرة الدر (محمد سعيد العريان)
٦٢ مرح الوليد (على الجارم)
٦٣ رقيق الأرض (نظمى لوقا)
٦٧ أمير قصر الذهب (طاهر الطناحى)
٨٧ غادة رشيد (على الجارم)
٩٢ الجامحة (أمينة السعيد)
١٠٥ الحب الضائع (د. طه حسين)
١٠٦ سجل التوبة (أمين الريحانى)
١٠٨ سارة (عباس محمود العقاد)
١١٦ اللحن الشرود (كرم ملحم كرم)
١٢١ عذراء الأندلس (أحمد الصاوى محمد)
١٢٢ أشطر من إبليس (محمود تيمور)
١٢٩ زامر الحى (محمود تيمور)
١٣٠ فى بطون الليالى (رشاد دارغوث)
١٣٥ ليلى العفيفة (عادل الغضبان)
١٣٦ أبو على الفنان (محمود تيمور)

١٤١ بنت قسطنطين (سعيد العريان)
١٤٥ عيون معصوبة (محمود كامل)
١٥٢ قلوب معذبة (قدرى قلعجى)
١٥٣ دماء وطين (يحيى حقى)
١٥٥ بنت يزيد (سامى الكيالى)
١٥٩ أجواء (حسن محمود)
١٦٥ مصرع طاغية (حسن رشاد)
١٦٧ أنات الساقية (عبد الله القرشى)
١٧٦ عودة المفقود (حسن رشاد)
١٨٣ الثريا (كمال بسيونى)
١٨٦ عاشقة نفسها (حسن رشاد)
١٩٥ محكمة الضمير (حسن رشاد)
١٩٩ عرس ومأتم (البدوى الملثم)
٢٠٠ مواطن أمام القضاء (فاضل السباعى)
٢٠٩ حال الدنيا (حسن رشاد)
٢١٩ ثمن الكرامة (سلامة خاطر)
٢٣٤ حبة البرتقال (أحمد العنانى)
٢٣٨ قلب عذراء (إبراهيم المصرى)
٢٤٠ نفوس تتكلم (ودادسكاكينى)
٢٧٣ مذكرات طبيبة (نوال السعداوى)
٢٧٦ صنيعة الشيطان (حسن رشاد)
٢٧٨ يوسف الصديق (محمد طلبه رزق)
٢٨١ خالدون فى الوطن (إبراهيم المصرى)
٢٨٣ دماء فى الفجر (فاروق حلمى)
٢٨٤ عروسة على الرف (صوفى عبد الله)
٢٨٧ قصص من جوته (عبد الغفار مكاوى)
٢٨٨ قصص الحب العربية (عبد الحميد إبراهيم محمد)
٢٨٩ البارونة أم أحمد (محمود تيمور)
٢٩٢ شيء من الخوف (ثروت أباظة)
٢٩٧ ابن السلطان (عبد الغفار مكاوى)
٣٠٢ نشيد الكروان (طاهر الطناحى)
٣١٣ عفراء : قصة الحب الخالد (فايد العمروسى)
٣١٥ أعترف إليك (أحمد فؤاد تيمور)
٣٣٩ مومس تؤلف كتاباً . وقصص أخرى (فتحى رضوان)
٣٤٣ إنى صاعدة (حلمى سلام)
٣٤٤ الوادى السعيد (لويس عوض)
٣٤٧ بنك القلق (توفيق الحكيم)
٣٥٠ دموع فى عيون ضاحكة (يوسف جوهر)
٣٥١ من أخطاء القضاء (حسن صالح الجداوى)
٣٥٢ عندما تحب المرأة (حلمى مراد)

فى الأدب

السير والتراجم

سياسة وعلوم سياسية

علم النفس

علوم

٣٨ العلم والحياة
(د. على مصطفى مشرفة)

٤٨ غرائز الحيوانات
(محمد محمد فياض)

٥٢ النار الخالدة (فؤاد صروف)

٥٥ مع الأسماك
(د. حسين فرج زين الدين
وموسى باسيليوس)

٦١ الموج الساحر
(محمد عاطف البرقوقى)

٦٦ مملكة العذارى
(د. أحمد زكى أبو شادى)

٧٣ أسرار الحياة
(د. مصطفى عبد العزيز
و د. عبد العزيز أمين)

٧٥ العيون فى العلم
(قدرى حافظ طوقان)

٨٤ الوراثة والجنس
(د. عبد الحليم منتصر)

٩٠ قصة البترول
(يوسف مصطفى الحارونى)

٩٣ العالم سنة ٢٠٠٠
(على عبد الجليل راضى)

١٠٠ قصة العناصر (إمبابى أحمد)

١٣٢ البساط السحرى
(عبد السلام فهمى)

١٤٩ بين البقاء والفناء
(قدرى حافظ طوقان)

١٥٤ أينشتين والعالم
(محمد عاطف البرقوقى)

١٧١ حرب الخامات
(د. عبد الحليم منتصر)

١٧٨ الصعود إلى المريخ
(د. محمد جمال الدين الفندى)

١٨١ هجرة الحيوان
(د. أحمد حماد الحسينى)

١٨٥ الغبار الذرى
(د. محمد جمال الدين الفندى)

١٨٩ عصر الإلكترونات
(د. جورج وهبه العفى)

١٩١ الهزات الزلزالية
(محمد على المغربى)

١٩٦ قوى الطبيعة فى خدمتك
(محمد جمال الدين الفندى)

١٩٨ الكلف الشمسى
(محمد على المغربى)

٢١٤ عصر التليفزيون
(د. جورج وهبه العفى)

جغرافيا ورحلات

طب وصحة

تاريخ

٣٧ العناصر النفسية فى سياسة العرب (شفيق جبرى)

٥٣ قصة الكتابة العربية (د. إبراهيم جمعة)

٨٦ الوعد الحق (د. طه حسين)

٩٤ طرائف من التاريخ (مصطفى الشهابى)

٩٥ من أضواء الماضى (سامى الكيالى)

١٠٣ المهدى والمهدوية (د. أحمد أمين)

١١١ الصعلكة والفتوة فى الإسلام (د. أحمد أمين)

١١٧ تيجان تهاوت (محمد عبد الغنى حسن)

١٣٤ أساطير مصرية (د. عبد المنعم أبو بكر)

١٣٨ الجمعيات السرية (على أدهم)

١٤٤ ابن بطوطة (د. إبراهيم أحمد العدوى)

١٧٩ السفارات الإسلامية إلى أوربا فى العصور الوسطى (د. إبراهيم أحمد العدوى)

١٨٨ الثورة العرابية (محمد عصام المرشدى)

١٩٠ المساجد والقصور بالأندلس (د. السيد محمود عبد العزيز)

٢١١ الفروسية العربية فى العصر الجاهلى (سيد حنفى)

٢١٣ الألعاب الأولمبية (مصطفى الشهابى)

٢١٥ قصة ملكة سبأ (زاهر رياض)

٢٣١ صور من كفاح الشعب العربى (د. جمال الدين الرمادى)

٢٤٧ البحر المتوسط بحيرة عربية (د. على حسنى الخربوطلى)

٢٥٣ الصين والعرب عبر التاريخ (محمد محمود زيتون)

٢٩١ الكعبة على مر العصور (د. على حسنى الخربوطلى)

٢٩٣ معركة العلمين (السيد فرج)

٣٢٢ قناة السويس فى مائة عام (د. محمد عبد الرحمن برج)

٣٣٠ أروى بنت اليمن (عارف تامر)

٣٣٣ رسائل وأسرار (محمد التابعى)

اجتماع

٨٨ الجنود الحمر (د . على عبد الواحد وافى)

١٠١ ملامح من المجتمع العربى (محمد عبد الغنى حسن)

١٥٠ وعى الشباب (واصف البارودى)

١٦٠ حبات المسبحة (يحيى حقى)

١٦٩ عادات الزواج وشعائره (أحمد الشنتناوى)

٢٢١ التصنيع طريقنا إلى القوة والرخاء (د. حسن الأشمونى)

٢٢٢ الحياة المثالية وكيف نحققها (م . أحمد حماد)

٢٢٨ التعبئة الروحية فى بناء المجتمع (د . حسن الأشمونى)

٢٤١ نحو حياة مشرقة (عبد العزيز جادو)

٢٤٢ تعدد الزوجات لدى الشعوب الإفريقية (د. محمود سلام زناتى)

٢٦٢ بقايا كل شىء (أنيس منصور)

٢٦٤ ٥٥ مشكلة حب (د . مصطفى محمود)

٢٧١ نماذج من النساء (محمد زكى عبد القادر)

٢٧٩ مع الآخرين (أنيس منصور)

٢٩٤ كوكب الإنسانية (أحمد حسين)

٣٢٠ مذكرات زوج (أحمد بهجت)

٣٢٩ رسائل إلى ولدى خالد (البدوى الملثم)

٢٤٨ نحو النور (محمد زكى عبد القادر)

الفلسفة

٣ مذبح المريخ (فؤاد صروف)

٩٧ فلاسفة الحكم فى العصر الحديث (عباس محمود العقاد)

٣٠٥ قصة الفلسفة (د . مراد وهبة)

٣٢٦ الروح والخلود بين العلم والفلسفة (عبد العزيز جادو)

١٢٣ الحكماء الثلاثة
(أحمد الشنتناوى)

١٦ الفلسفة الوجودية
١ (د. زكريا إبراهيم)

٣٢٨ المعقول واللامعقول
(د . أحمد فؤاد الأهوانى)

معارف عامة

٥٦ طرائف من الصحافة
(محمود العزب موسى)

١٨٤ المراسل الحربى
(د . محمود محمد الجوهرى)

٢٤ لماذا الاشتراكية العربية
(لمعى المطيعى)

٢٤٦ اليمن بين القات وفساد الحكم قبل الثورة (محمد السيد أيوب

٢٥١ القيادة الجماعية فى مجال التطبيق العملى
(أحمد مصطفى عيسى)

٢٥٨ المحاماة فى المجتمع الاشتراكى
(أبو اليزيد على المتيت)



وصلت فى قفزتها الأولى إلى ٥٠,٠٠٠ نسخة
وستصل فى هذه القفزة إلى ٧٠,٠٠٠ نسخة

صدر منها فى الأشهر الأخيرة :

أكتوبر	١٩٧١	:	ذكريات عارية للدكتور السيد أبو النجا
رمضان	١٣٩١	:	أحاديث رمضان للدكتور عبد العزيز كامل
نوفمبر	١٩٧١	:	بنك القلق للأستاذ توفيق الحكيم
ديسمبر	١٩٧١	:	نحو النور للأستاذ محمد زكى عبد القادر
يناير	١٩٧٢	:	هؤلاء علمونى للأستاذ سلامه موسى
فبراير	١٩٧٢	:	دموع فى عيون ضاحكة للأستاذ يوسف جوهر
مارس	١٩٧٢	:	من أخطاء القضاء للأستاذ حسن الجداوى
أبريل	١٩٧٢	:	عندما تحب المرأة للأستاذ حلمى مراد
مايو	١٩٧٢	:	خدعوك فقالوا للدكتور سعيد عبده
يونيو	١٩٧٢	:	رحلة الشرق والغرب للدكتور لويس عوض
يوليه	١٩٧٢	:	بلابل من الشرق للأستاذ صالح جودت

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٣١٨٦ / ١٩٧٢

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢

محتويات الكتاب

